ضد مجهول

روايات الهلال

أبو المعاطى أبو النجا

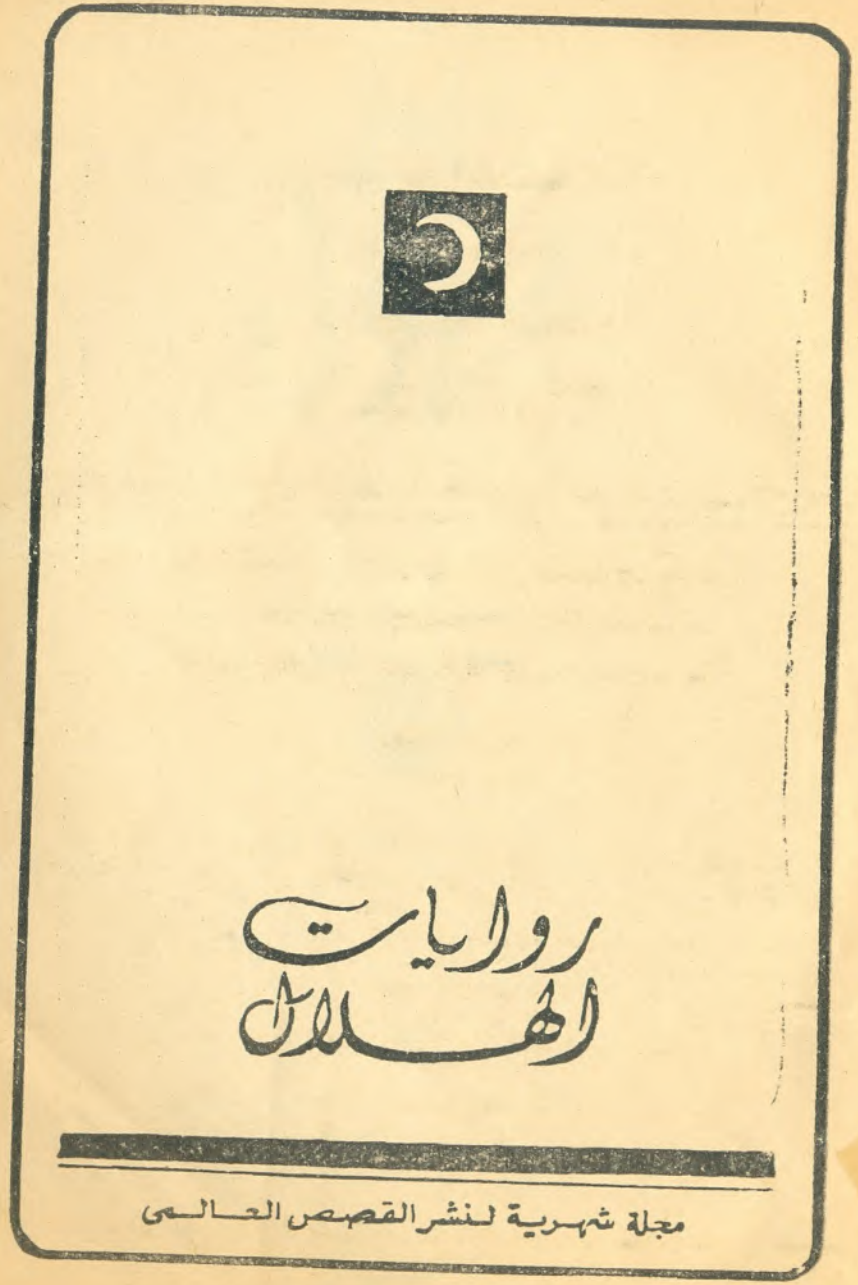

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣١٢ – ديسمبر ١٩٧٤ – ذو القعدة ١٣٩٤
No. 312 — December 1974

رئيس مجلس الإدارة : **فكرى أباظة** ● نائب رئيس مجلس الإدارة : **صالح جودت**

رئيس التحرير : **صالح جودت**
المشرف الفنى : **جمال قطب**
سكرتير التحرير : **موسى عبد**

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٢٠ مليما . عن الكميات المرسلة بالطائرة – فى سوريا ولبنان ١٥٠ قرشا ، فى الاردن ١٥٠ فلسا، فى العراق ٢٠٠ فلس – فى الكويت ٢٢٥ فلسا – فى السعودية ٢,٥ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا – فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أو ٢,٥ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال: فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى . والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

ضد مجهول

بقلم

أبو المعاطى أبو النجا

•

دار الهلال

الغلاف بريشة
الفنان جمال قطب

- ١ -

لمح « صبرى » فى عينى عمه الحاج ابراهيم نظرة تأنيب ، لم يكن هو الذى يستحق هـــذه النظرة .. لـكن كيف يخبر عمه بالحقيقة دون أن يجد نفسه فى موقف الواشى بابن عمه ؟

قال بعد لحظة تردد :

ـ « أحمد » لم يقف وراء الانفار غير ساعتين فى الصباح .. وقفت بدلا منه ... فلم أقم بعمل آخر !

تساءل الحاج ابراهيم فى غضب وقد تفضن جبينه الذى لوحته الشمس تحت عمامته البيضاء :

ـ وأين ذهب بقية النهار ؟

ـ كان يجلس تحت الشمسية مع «شريف بن عباس المواردى» عند الهدار !

ـ ابن عباس بك المواردى ؟

قالها بلهجة بين الانكار والدهشة ، ثم تابع بسؤال بدا لصبرى لا معنى له :

ـ ومتى عاد عباس بك من القاهرة ؟

ثم استطرد متبسطا مع صـــبرى ودون أن ينتظر اجابة على سؤاله السابق :

ـ لم يكن أحـد يرى « عباس بك » الا فى جمع القطن ، ماذا يجرى فى الدنيا فى هذه الايام ؟

تمنى صبرى لو يستعير من عمه سؤاله الاخير ... أن يقول له : حقا ماذا يجرى فى الدنيـا فى هـذه الايام ؟ لقد تغير فجأة صوت عمه ، وارتخت ملامحه التى شـدها الغضب منذ لحظة ، بطريقة جعلته يشك فى أن غضب عمه سوف يبلغ غايته ...

هبت على رأس الحقل نسمة هواء تشى بانكسار حرارة النهـار

ومضت لحظات صمت مشـــحونة بدا العم خلالها وكأنه يدرك موقفه ... يدرك ما فيه من غرابة ... فقال بلهجة من يريد أن يتخلص من الموقف لا من يريد حسمه :

ـ حين يرجع « أحمد » .. لى معه كلام !

ومضى فى اتجاه القرية بعد أن نفض عن ثوبه بعض الغبار بغصن شجرة كان فى يده !

فكر صبرى : لا ليس هذا هو غضب عمه القوى الواضح ، وليس هـــذا مسلكه ، وكاد يكرر السؤال : ماذا يجرى فى الدنيا ؟ هل أخطأ لأنه ذكر لعمه الحقيقة بشأن ابنه أحمد ؟ أكان عليه أن يبقى صامتا يتلقى التأنيب الصـــامت حتى يعرف عمه الحقيقة من أحمد أو من غيره ؟ انه لايشك فى ان أحمد كان سيقول له الحقيقة لو سأله عنها ! ولكن ماذا لو أنه لم يسأله ؟ سيظل يعتقد انه لم يقم بما كلفه به من عمل ! واستشعر فى هذا الموقف كما استشعر فى مواقف مماثلة مرارة فقدان الأب ، مرارة الحرص على أن توضح دائما انه ليس خطأك ، وانك دائما حيث يجب أن تكون !

حين مات والد صبرى لم يترك له ولأخته وأمه سوى ثلاثة أفدنة ما كانت لتفى بنفقات تعليمه وحده لو انه أجرها أو حتى باعها ، فضلا عن مصاريف بقية الأسرة ، الا أن عمه قال له بوضوح عشية موت والده أمام كل الناس وكأنه يقطع على نفسه عهـــدا يشهد عليه الجميع :

ـ لا تحمل هما .. ستواصل تعليمك مع « أحمد » ، أولادى سيزرعون أرضكم كما يزرعون أرضى ..

« صبرى » و « أحمد » هما أصغر أبناء الأسرتين ، كان لهما وحدهما دون بقية الاخوة حظ مواصلة التعليم فى مدارس البندر، وفى حياة الأبوين عاش الولدان معا حياة واحدة ، يسكنان فى حجرة مشتركة ، يذهب لهما الطعام فى سلة واحدة ، يأكلان فى نفس الطبق ..

ومع ان الحاج ابراهيم يمتلك عشرة أفدنة يزرعها أولاده الكبار بأنفسهم فانه لم يرسل يوما لابنه من النقود أكثر مما يرسل

اخوه لابنه ... وبعد أن مات والد صبرى لم يتغير شىء فى حياة الولدين .. وفى الحاج ابراهيم بكلمته .. دخل « أحمد » كلية الآداب و « صبرى » كلية الحقوق .. ولكن حجرة واحدة فى الجيزة ظلت تجمعهما فى المساء .. وفى الاجازة يقومان بنفس الاعمال فى الفيط أو فى البيت لكن تأتى فجأة لحظة كهذه ، يكون عليه فيها أن يثبت دائما براءته ، أن يثبت انه لا يقابل جميل عمه بالجحود ، فيستشعر من جديد انه حرم من ذلك الحق الأبوى .. حق الخطأ !

- ٢ -

قال « شريف » « لأحمد » بعد أن توقفا أمام البوابة البحرية للسراى وقفة قصيرة ظنها « أحمد » لتكملة الحديث الذى بدأ فى الحقل :

ـ لماذا لا تجىء معى الآن لترى بعض لوحاتى التى فرغت من رسمها ؟

تردد « أحمد » دون سبب واضح ، ثم تذكر فجأة ان الوقت قد تأخر وغمغم بذلك .. قال «شريف» وهو يجتذبه الى الداخل:

ـ على أى شىء ؟ المسألة كلها لن تأخذ سوى دقائق ، عندى هنا ثلاث لوحات موضوعة فى الصالة .. يمكنك أن تراها بسرعة !

ـ لامانع ...

قالها « أحمد » وهو يهم باجتياز البوابة وراء « شريف » ...

منذ كان طفلا وهو يمر أمام هذه البوابة ... ومثل كل الاطفال فى القرية تطلع الى ما وراءها .. ومثلهم توقفت نظراته عند أحواض الزهور والمماشى الصفراء ، والمربعات والدوائر المفطاة بالحشائش الخضراء ، ومثلهم لم يبصر مرة واحدة ماذا وراء البوابة الداخلية التى تفتح مباشرة على صالة سراى « عباس بك المواردى» ومثلهم تخيل وحلم وتحدث عما فى هذه الصالة من أعاجيب يتناقلها أهل قرية « الزهايرة » جيلا بعد جيل عن أقارب المواردى الكبير الذين يدخلون السراى ويخرجون منها كأهلها !

وها هو فجأة يجد نفسه فى الطريق الى كل ما عاش طفولته يحلم به ويتحدث عنه دون أن يراه .. !

دق « شريف » البوابة الداخلية بالكف النحاسية المعلقة أبدا بالباب والتى تتكور أصابعها على كتلة مستديرة من النحاس لترسل صوتا قويا يسمعه من بالداخل !

فتح الباب .. فتحته عجوز من القرية تخدم فى السراى ... اختفت بنفس البطء الذى جاءت به .. ربما كانت هذه العجوز نفسها أعجب شىء رآه فى صالة الاعاجيب التى عاش يحلم بما فيها ... ربما كانت الاعاجيب الحقيقية فى الدور العلوى أما هنا ففى جوانب الصالة مجموعات من المقاعد القديمة تبدو كأنها لا تستعمل الا فى أضيق الحدود .. !

ـ تفضل هنا .. يبدو أن أحدا نقل لوحاتى من مكانها فوق « البوفيه » حالا سأجدها هنا أو هناك ...

الضوء يصل الى الصالة واهنا .. وشعور بالفراغ والرطوبة يملأ المكان كله ... مكان تعوزه الانفاس والضحكات والحركة شأن البيوت التى يغيب عنها أصحابها كثيرا .. !

قطعة من الجير معلقة فى أعلى الحائط كأنها هناك من سنين .. لا تسقط ولا ترتد الى مكانها ... أبواب الحجرات الجانبية على الصالة تقف كأنها الحراس على ما وراءها ... أحدها يفتح فجأة ، تفتحه فتاة فى السابعة عشرة من عمرها تقريبا ، سمرتها ودقة ملامحها يؤكدان انها شقيقة « شريف » ... توقع أى شىء الا ان تمضى الفتاة لشأنها وكأنه غير موجود بالمرة ... لا سؤال ... لا نظرة ... لا كلمة ... ولا حتى شعور بالمفاجأة ، كأن من المألوف أن يوجد فوق هذه المقاعد بعض الناس الذين لا يعنى أحد بوجودهم أو عدمه ...

بعد أن اختفت الفتاة خلف أحد الابواب ، وقبل أن يعود شريف ... حاول « أحمد » أن يسترد للحظات هذه الفتاة التى جاءت وذهبت فجأة ...

... الذاكرة ... يا لها من شىء رائع ، أقدم صور الملكية دون شك ... لا أحد يستطيع أن يسلبه تلك الصورة ... الأنف ... العينان .. الجبهة .. الشعر .. القوام .. ، اللامبالاة . الصدر ، حين عاد شريف أطبق ذاكرته فى رفق على الصورة .. واثقا ان التفاصيل لن تضيع .. سيعود اليها .. أجل لابد أن يعود .. ولن يفلت منه شىء .

ـ « نجوى » هى التى نقلتها من مكانها .. والآن ما رأيك ؟

قالها شريف وهو يضـــع اللوحات على البوفيه ، ويمضى لفتح باب الصالة حتى يدخل بعض الضوء ، ثم أوضح :

ـ هـذه اللوحات كلها لرسوم عالمية ، لوحة « الهدار » التى أرسمها فى الحقل هى أول محاولة لرسم منظر طبيعى مصرى !

توقف أحمد أمام صورة لشلال تنحدر ميـاهه فى روعة ، ألوانها تكاد تنطق ، دقة النقـل تبلغ درجة عالية من الاتقان ، قال فى تأثر حقيقى :

ـ أكاد أسمع صوت تدفق المياه !

قال شريف مزهوا :

ـ قل لها .. لا تعترف بى كفنان !

تلفت « أحمـد » .. متى جاءت ؟ هى نجوى اذن ؟ لم يقـدم شريف أحدهما للآخر كأنما اكتفى بتقديمها ، لم يدر ماذا يقول أو يفعل ؟ خانته بديهته .. بينما اسـتطرد شريف وهو يبرز لوحة جديدة :

ـ هذه صورة « فنار » ترفرف حوله طيور البحر ..

لم تكن نجوى تتابع أخاها ، لاحظ أحمد فى عينيها نظرة غامضة متحفزة ، للحظات حار فى فهمها ، وكأنما كانت تنتظر منه ردا ، وضعت حدا لحيرته حين قالت ، وهى تكتم شبه ضحكة ، قالت له ، لأحمد وهى تقتحم خجله ، وهى تواجهه بأجمل عينين رآهما فى حياته :

ـ هل أنت معجب بها كلوحة أم كاسطوانة ؟

بوغت أحمد بتعليقها ، امتزج الغضب والضحك فى وجه شريف ، انسحبت « نجوى » وهى ترى المفاجأة فى وجه « أحمد » تتحول الى ما يشبه الوجوم ! قال شريف فى نبرة من يثق فى ان محدثه لايشك لحظة فى صدقه :

ـ أثق فى انك سوف تفهمنى ، أختى لا تقصد اهانتك ، فتلك أول مرة تراك فيها ... انها أكثر اخوتى طيبة ، وحبى لها يفوق كل شىء ، لـكنى لا أفهم ميلها الشديد للمزاح ، نوع من الرغبة فى لفت النظر ، لا أفهم لماذا تبالغ فيه ؟

ثم اضاف محاولا اضفاء جو من المرح ليبدد حرج أحمد ...

اضاف وهو يغمز باحدى عينيه :

ـ مع انها ليست فى حاجة الى ذلك !

قال أحمد محاولا تجاوز الموقف كله :

ـ المسألة بسيطة لمـاذا لا تتركنا نواصل التفرج على لوحاتك ؟

لـكنهما ظلا هـذه المرة يتأملان الصور فيما يشبه الصمت عدا أسئلة قليلة كان يتعمد بها « أحمد » أن يجعل الموقف شبه طبيعى!

- ٣ -

قال «أحمد» « لصبرى» ذات صباح وهما معا عند راس الحقل:
ـ تعال معى .. حدثته عنك .. أبدى رغبة شديدة فى أن يراك!
انه يرسم صورة بديعة « للهدار » بالزيت ويريدك أن تراها .
وتأكد لصبرى ما كان لبعض الوقت فى شك من أمره ، ان عمه « الحاج ابراهيم » لم يوجه لأحمد اى لوم على مسلكه ، كان ذلك غريبا ... فتلك أول مرة يبدو فيها عمه منحازا لابنه أو لعله كما تزعم أمه منحاز دائما ولكنه هو الأعمى !
قال صبرى لأحمد :
ـ ونترك الأنفار وحدهم ؟
ـ « حسنين » يتابع الأنفار أفضل منك ومنى .
ـ تتجاهل ان هذا يعطله عن العمل ، يحوله الى ريس ، لكن وجود أحدنا على الأقل يزيد الأنفار واحدا .
ـ دائما تعقد السهل .
ـ لو جاء أبوك الى الحقل ماذا يقول حين لا يجد أحدا منا هنا ؟
ـ أبى اليوم فى السنبلاوين .
ـ سيعرف كل شىء ولو كان فى المنصورة .
ـ قل انك خائف اذن ؟
ومع انه قالها كمزاح ، الا ان صبرى صرخ فى غضب اهتز به كل جسده الربعة القوى :
ـ اذهب أنت .. لا شأن لك بى ..
ثم تماسك وفكر وهو ينقر الارض بعصاة كانت فى يده « ليس عدم خوفك شجاعة ... وليس خوفى جبنا ... وفى الحقيقة لا أخاف منك ولا من أبيك ... ولكنى لا أجد معنى للتقرب من هؤلاء الذين ليسوا منا ولسنا منهم ، لماذا تحاول أنت أن تلتصق بهم ؟ »

« ولكن ما جدوى أن يقول لأحمد ما فى نفسه اذا كان عمه نفسه ، الرجل الذى يعمل الناس لكلمته الف حساب مع انه ليس أغناهم ولا أقواهم ، اذا كان الحاج ابراهيم نفسه قد بلع غضبه وسكت ؟ هل هناك شىء لا يفهمه ؟ أم انه أعمى حقا كما تقول أمه ؟ »
ـ لماذا لايجىء « شريف » الى هنا ... اذا كان يريد أن يجلس معنا ؟
ألقى صبرى بهذا السؤال وكأنه أراد أن يعتذر عن غضبه العنيف ...
قال أحمد الذى فوجىء بالسؤال وبالتحول :
ـ هناك شمسية ضخمة من شماسى البلاج نجلس تحتها .. و..
ـ هنا ثلاث شجرات كبيرة من التوت تحيل المكان الى جنة ، اذهب وقل له أن يجىء الى هنا اذا أراد أن يجلس معنا .
ـ يا أخى انت تعقد الأمور ... انسيتنى السبب الحقيقى انه يرسم « الهدار » والهدار هناك ...
قال صبرى بلهجة ساخرة :
ـ وأرض أبيه أيضا هناك ! هل نسيت ؟
قال أحمد بلهجة تنم عن الغيظ :
ـ أرض أبيه هناك وهنا أيضا ... ولو جلس فى أى مكان على ترعة البوهية فسيجد نفسه قريبا من أرض أبيه ... لماذا تفكر بهذه الطريقة ؟ لو تكلمت معه لعرفت انه ليس من النوع الذى تظن! لا أدرى كيف أوضح لك ... لهذا يجب أن تراه بنفسك ؟
ـ اذهب أنت ... ولا تشغل نفسك بهذا الموضوع وثق انه لايشغلنى !

- ٤ -

قال أحمد لنفسه وهو يمضى للقاء شريف وكأنه لايزال يخاطب صبرى :

« طبعا لايشغلك ، ولو اننى ظللت عشرين عاما أخرى دون أن التقى بشريف لما شغلنى أمر لقائه لحظة واحدة ، أى دور تلعبه الصدفة فى حياة الناس ؟ لو أن المصادفة التى جمعته بشريف وضعت صبرى مكانه لكان هو الذى يحاول الآن اقناعه .

ولكنه بكل تأكيد ما كان ليعاند ويرفض بمثل هذه الطريقة .. هل هو واثق من هذا كله ..؟ لايدرى ، ولايدرى أيضا كيف يصوغ فى كلمات هذا الذى يشعر به ويفكر فيه منذ قابل شريف؟ كيف يصوغه فى كلمات يمكن أن تدخل رأس هذا الثور الذى يحبه ، ولكنه يعجز أحيانا عن التفاهم معه ؟ « صبرى » ابن عمه الذى يشبه الثور ليس فقط فى قوة عضلاته ، وقدرته الفذة على الاحتمال والعمل بل فى صلابته وعناده ! ان أى كلام يقوله له لن يكون له تأثير لقاء واحد مع « شريف » نفسه ، ان له سحرا خاصا ذلك الولد الذى فى مثل سنهم تقريبا وربما أصغر . ومثلهم فى السنة الثالثة من المرحلة الجامعية .. سوى انه فى كلية الهندسة .. ولكنه يلوح أكبر وأنضج بكثير كلما تحدث فى أمر من أمور الحياة ...

لو قابله صبرى مرة بالصدفة مثلما حدث لأذاب عناده فى لحظة خاطفة ... بعد لحظات من لقائه سوف يناديه باسمه مختلفا .. له طريقته فى تنغيم الاسم ، وتدليل صاحبه ... له طريقته فى التنقل من موضوع لآخر ، لايوجد هناك كلام يخشى أن يقوله ... يتكلم عن أمه وأبيه كما يتكلم عن أى شخص يعمل عندهم فى السراى أو الحقل بنفس البساطة والصدق والاهتمام ... يبدو وكأنه

يستحيل أن يكذب .. ! يبدو وكأنه لم يصادف فى حياته ما يجبره على أن يخفى شيئا أو أمرا ... ثقته فى نفسه ، فى ان الناس سوف يتقبلونه ويحبونه ... ثقة لا تنبعث بأى حال من كونه « ابن عباس بك المواردى » ، بل من ذاته ، من سواد عينيه اللتين لايضارع سوادهما الا سواد شعره الناعم الكثيف !

ابتسامته الحلوة التى تشرق فى كل ملامح وجهه والتى لايشوبها تردد أو اكتئاب أو خوف ، عيناه المليئتان بالذكاء والثقة والحيوية، حساسيته الفائقة التى تدفعه أحيانا الى أن يجيب ... ليس فقط على ما توجه اليه من أسئلة ، بل على ما يشعر أنك تود أن تسأل عنه لكنك تتحاشى أو تتهيب ! أما هو فلا يتهيب أن يقول:

« كان لابد أن يعود بابا الى البلد بعد أن أعفى من مناصبه ... رجل مثله لايمكن أن يظل بلا عمل ... قانون الاصلاح الزراعى لم ينقص من أرضنا شبرا واحدا .. واشراف بابا نفسه على زراعة الارض سوف يعوضنا الكثير ، كان عمى يبتلع الكثير من ايراد الارض فى غيبة بابا »

ويكاد أحمد يصرخ فيه :

كن عاقلا ... لا تقل مثل هذا الكلام أمام أحد ، فالناس فى هذا البلد يعملون حساب عمك هذا ، ودائما سيكون هناك من ينقل له هذا الكلام .

« لم أكن أتصور أن يكون وجودى فى البلد طيبا بهذه الصورة .. لولا الفراغ والناموس لما فكرت فى العودة الى مصر .

— ومتى تنتوى العودة ؟

— لم أعد مستعجلا .. فى الحقيقة معرفتى بك ... « لايجرؤ على أن ينقل لصبرى مثل هذا الاطراء حتى لا يتهم فى تواضعه » لم أكن أتصور أن أجد هنا شخصا مثلك ، ان الحديث معك أو لعب الشطرنج كلاهما متعة لا تقدر ... انت تسأل عما لا تعرف بذكاء ، وتتكلم عما تعرف بتواضع « لم يكن أحمد قد تلقى فى حياته كلها مثل هذا المديح » قبل الظروف الاخيرة كنا نقضى الصيف فى أوربا أو لبنان « دهش أحمد ، انه يطلق على الثورة اسم الظروف الاخيرة ، ولكن روعة الاطراء الذى سمعه منذ لحظات

جعلته لا يعلق » الريف فى أوربا مذهل ياصـــديقى ، مرتفعات تكسوها الثلوج شتاء ، والخضرة صيفا ، ووهاد يتحول بعضـها مع الربيع الى بحيرات ، وعلى مدى البصر غابات مثيرة تشـقها طرق السيارات أحيـانا ، ويمكنك اذا أردت أن تركن سيارتك فى جانب من الطريق لتوغل قليلا فى الغابة ، ويمكنك آنذاك أن تتنـــاول طعامك أو شرابك أو ترقد الى جوار صـــديقتك على الارض بين الاشجار .

ويفكر أحمد بأن يسأله سؤالا ، ولـكنه ينطلق بسؤال مختلف :

ـ لـكن ألا خوف من حيوانات الغابة ؟

ويضحك شريف وهو يستطرد :

ـ لا توجد فى هـــذه الغابات حيوانات بالمعنى الذى تتخيله ، وحتى اذا وجد بعضها فالخوف حينئذ على الحيـــــوانات لا على الناس ..

ويهم أحمد بالـكلام ولـكن شريف يتدفق :

ـ ليس هناك أجمـــل من الطبيعة سوى البشر أنفسهم .. الفلاحون هناك غاية فى الجمال والرقة والنظافة والنضارة .. المرأة هناك تعزق بالفأس مثل أقوى رجل هنا دون أن تفقد أنوثتها أو رقتها أو نظافة ثيابها !

ويصر أحمد هذه المرة على التدخل :

ـ وفلاحنا هنا .. متى يصبح مثل فلاح أوربا ؟

ـ ولمـاذا فلاحنا وحده ؟

ـ الاغنياء عندنا مثل أغنياء أوربا .. أنتم مثلا

ـ أنت لا تعرف الحقيقة عن الاغنياء هناك أو هنا ؟ توجد فروق كثيرة وكبيرة هل تسمع عن « رشدى حافظ » ؟

ـ نعم ... انه عضـو الوفد الذى كان يتهمه بعض الوفديين بأنه شيوعى ..

ـ مرة كاد بابا يضربه فى النـــادى بســـبب آرائه ، ولـكننى شديد الاعجاب بآرائه ، ولاأراه شيوعيا كما يزعمون .. هو الذى شرح لنا مرة كيف أن تقدم الفقراء فى مصر رهن بتقدم الاغنيـاء أنفسهم فالتقدم شىء مختلف عن مجرد الثراء ... التقدم كالنمو

لابد أن يشمل الجذور والفروع معا ، ولـكن فى مثل ظروف بلادنا لابد أن تبدأ دورة التقدم حركتها من الاغنياء أنفسهم ، هل قرأت كتاب : « التقدم من أين ؟ » ... ونطق اسم المؤلف الاجنبى بسرعة فلم يسمعه أحمد ولم يستوضحه اكتفى بقوله : لا !

واستطرد شريف :

ـ لن أعيرك الـكتاب .

ثم تابع بلهجة ضاحكة :

ـ مع اننى أختلف مع بابا فى الـكثير من آرائه الا ان له رأيا يعجبنى فى مسألة اعارة الـكتب ، يقول بابا : لماذا يرى النـاس أن عدم رد النقود خطيئة ولا يرون نفس الرأى فى عدم رد الـكتب ... بابا لايطيق القراءة مع انه يمتلك مكتبة ضخمة ، ولم أره مرة يعير كتابا لأحد .. ! ولهذا ...

ويتدخل أحمد عامدا هذه المرة ليوقف تدفق شريف :

ـ اقرأ كتاب « ســـــيد قطب » عن « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » .

ـ أنت من الاخوان المسلمين اذن ؟

ـ لا ... ولـكنى أقرأ ما يروق لى .

ـ انتهى عرش الاخوان مع الثورة ـ اذا كان هـــذا التعبير يرضيك ـ وأنت تعرف ان لى رأيا فى معنى الثورة لـكن الثورة فى مصر لا تفرق الآن فى عدائها بين الوفد والاخوان وجميع الاحزاب!

ـ لم أكن عضوا فى أى حزب ..

ـ ولا أنا... وكون بابا «نائب سابق» فى برلمان الوفد وشخصية وفدية لا يجعل منى بالضرورة وفديا ، ولـكن يمكنك أن تضعنى فى الحزب الذى يحب البنات والرياضة والفن والقراءة والرحلات.

ـ وانا يمكنك أن تضعنى فى أى حزب يحب العدالة والفن ...

ـ العدالة وآلفن... أنت مثل جميع الشعراء تحب أن تستعمل الـكلمات الجميلة والفامضة ... هل فكرت طويلا فى معنى العدالة أو الفن ؟

ويقول أحمد محاولا أن يحيل الموضوع الى فـكاهة :

ـ حين أكون معك أســـمع أو أتكلم ، وأفكر فقط حين أكون وحدى ...

ويضحك شريف قائلا :

— تعنى أنك تتكلم وتسمع بدون تفكير ؟

— نعم .. لأتابع حصانا مثلك فى حديثه !

— سوف نكون حمارين معا لو تركنا هذه البنت الحلوة التى تملأ القلة من مياه الساقية تمضى دون أن نقول لها كلمة حلوة ! لن يكون فى هذا شىء من العدالة !

— كن حذرا فالناس هنا ...

ويقاطعه شريف :

— يا اهبل أنت لا تعرف الناس هنا أو هناك ..

ثم يقول مستدركا :

— وانت أليست لك مغامرات هنا مع البنات ؟

— ليست لى مغامرات !

— مستحيل ... انت تكذب ... لكن لماذا تكذب ؟

— « لا أعرف » ..

هكذا نطق أحمد وكان يريد أن يقول :

— « لا أكذب » .

وفى الحقيقة ان أحمد لم يكن يعرف لماذا يكذب أحيانا مع شريف بالذات ؟

ولم يكن يعرف أيضا كيف يصوغ من هذا كله كلاما يدخل عقل « صبرى » ويثير رغبته فى أن يجىء معه ليتعرف الى شريف ، لكن أى شىء يجعل أحمد يصر على أن يصبح « صبرى » طرفا فى هذه العلاقة ؟

ألأنه اعتاد أن يجده شريكا له فى كل شىء وبالطريقة التى يراها ويريدها أبوه ؟ ما أكثر ما كان يضيق بهذه الطريقة ويسعى الى التخلص منها بشكل لا يجرح شعور صبرى !

ولكن المسألة هذه المرة تختلف كثيرا فهو لايريد أن يأتى بصبرى وحده للقاء شريف ، لو أمكنه أن يأتى له بكل تلاميذ البلد ليتعرفوا اليه لما تردد ، فشهوة شريف الى لقاء الناس ... الى الكلام والحركة لا تقف عند حد ... وهو لا يريده أن يمل الحياة هنا ويعود الى القاهرة قبل أن تنقضى الاجازة ... لماذا

أصبح وجود شريف يعنيه بهذه القوة ؟ ليته يعرف بوضوح .. ؟ فما يخيفه فى « شريف » لا يقل قوة عما يجتذبه اليه ، انه يخاف فيه تلك الحيوية الغريبة التى تجعله يبدو وكأنه شخص لايمكن الامساك أو حتى اللحاق به ! ولكن ما يحبه فى شريف هو تلك الحيوية نفسها ، تلك الحيوية التى جعلته يشعر وهو يقترب منه بأنه هو الآخر ملىء بما لم يكن يشعر به من الحيوية والعنفوان ... طوال حياته وهو يرى نفسه كما يراه زملاؤه فى القرية فى مقدمتهم ، ومنذ بدأت علاقته بشريف وهو يلهث وراءه ، ذلك نوع آخر من التلاميذ ، الا أنه فى ظل هذا السباق اليومى بدأ يدرك الكثير عن حقيقة قواه الكامنة أيضا ...

والغريب ان شريف نفسه هو الذى كان يقوده الى اكتشاف هذه القوى ... فهو لم يشعر أبدا فى أية لحظة ان ثمة سباقا بينهما من أى نوع ... هل يريد أحمد أن يأتى لشريف بكل تلاميذ القرية ليعرف بوضوح انه لايوجد ند حقيقى له فى القرية سواه ، سوى أحمد ؟

أم يريده أن يبقى ليدعوه مرة أخرى الى بيته ، ليرى من جديد تلك السمراء الجميلة التى هزت قلبه وكرامته ، ليعرف من هى ؟ ولماذا سخرت منه ؟ وما الحقيقة فى أقوال أخيها عنها ؟

ولكن شريف الذى يتحدث عن كل شىء تحت الشمس أصبح لا يتحدث عن أخته ولا يدعوه الى بيته .. ولكنه لم يفقد الأمل فى أن يفاجئه بذلك كما فعل أول مرة ، سوف تكون أقسى مفاجأة له أن يخبره بموعد سفره ...

وأن يصبح ذلك كله ... لقاؤه بشريف وما فجره ذلك اللقاء فى نفسه مجرد حادث صيف لا معنى له ...

— ٥ —

فى قلب الخضرة المتموجة التى تمتد بامتداد الحقول كانت ترتفع شمسية حمراء تتموج أطرافها البيضاء المجدولة فى مسرى النسيم تحتها كان يجلس شريف مستغرقا فى الرسم كأى فنان حقيقى ، أيمكن أن ينطوى أى فنان حقيقى على هذه القسوة التى يشعر انها تكمن تحت بشرة شريف البرونزية ، والتى تبدو وكأنها السند الحقيقى لوضوحه وبساطته ؟

ولكنه بالتأكيد لم يكن يفكر فى مجاملته حين عبر عن تأثره بلوحة « الشلال » . ربما كانت لوحة « الهدار » هى الاختبار الحقيقى له كفنان مبدع !

ترى هل يجرؤ على أن يقول رأيه الحقيقى فيها لو وجدها دون أعماله التى تعتمد على النقل ؟ وأن يقول له :

— انت مجرد ناقل ممتاز !

لايدرى ، فكر لو أن ذلك قد حدث أن يقول له مداعبا ومتخلصا من المأزق :

— الافضل أن ترسم صورة لوجه « نجوى » ، فهى أجمل من اى شىء هنا تحاول رسمه !

سيبدو وكأنه يرد على المزاح القديم بمزاح جديد وهو فى نفس الوقت ينبش موضوع نجوى ، وقد يروى لها النكتة ببساطته ، وحتما سترد ... وتتحرك المياه الراكدة ..

واستقبله صوت شريف وهو يقترب منه :

— أهلا .. أهلا .. أين قريبك ؟

— مشغول اليوم .. ربما يجىء غدا !

— حظه سيىء .. لن يرى هذه الصورة وقد اكتملت !

قال ذلك وهو ينحنى ليدفع الى احمد بكرسى من كراسى البحر

كان مطبقا بجواره ، قال أحمد وهو يهم بالجلوس وعيناه على الصورة:

— اراها بدلا عنه !

— طبعا ... وهو يشتغل بدلا عنك .. تلك هى العدالة التى تحبها .

فوجىء أحمد ، كيف ومتى عرف عنهما هذه التفاصيل ؟

تابع شريف :

— فيم تفكر ؟ لماذا تقف جامدا والصورة تتحدث اليك ؟

— رائعة .. أكثر من رائعة !

— منافق عظيم .. انت لم تتأملها جيدا بعد .

— لعنة الله عليك .. أنت لا تترك لأحد فرصة حتى للنفاق .

ولم يجرؤ أحمد رغم جو المرح الذى ساد بداية اللقاء ، ورغم أن انطباعه الاول عن الصورة لم يكن مثيرا ، على أن يشير من بعيد أو قريب الى نجوى .. راح يتأمل اللوحة من جديد !

ألمح الى انه ينقصها شىء لايعرف ما هو ؟ انها حقا تشبه « الهدار » فى كل شىء ، لكن ثمة شيئا ناقصا !

ثم تابع بعد لحظات من الصمت وقد تملكته روح الغيظ من نفسه من عجزه عن الاشارة الى موضوع « نجوى » .. تابع وكأنه عثر فجأة على هذا الشىء الناقص :

— هل تعرف ماذا يعنى « الهدار » بالنسبة للناس هنا ؟ ان كل الفروع المائية تبدأ منه ، انه القلب ، روح الحقول والحيوانات والطيور والناس ، مصدر الحياة لكل شىء ، والناس هنا يحبونه ويخافونه ، فمن يسقط هنا خلف الهدار لايظهر ، لا أحد يجرؤ على السباحة أو الغوص هنا سوى البحار ! هنا الدوامات القاتلة .. هنا مات أشجع أطفال القرية الذين تحدوا نصائح الآباء ، وتراهنوا على أن يعبروا البوهية من خلف الهدار .. كان لابد أن تحس الهدار كما يحسه الناس هنا لتعرف كيف ترسمه ؟

— تقول لى كل ذلك الآن ...

— لا أدرى لماذا لم أقله لك من قبل ! ربما أنت المسئول ، جعلتنى أشعر بأنك تعرف كل شىء أفضل منى حتى عن القرية .. والغريب انى صدقتك .

… شريف مستردا لروح المرح :

— لم يعد لى عيش فى بلدكم ... سأجمع أدواتى وأسافر غدا الى القاهرة ..

— لا تقل هـذا الـكلام .. لابد أن تستمع الى آراء أخرى فى اللوحة ... ما رأيك لو أخذت رأى الفلاحين ؟

— الم أقل مرة انك أهبل ؟ ماذا تظنهم يقولون ؟

— لا أعرف ... لـكن جرب ..

صمت شريف قليلا ... ظن أحمـد انه يفكر فى أقواله لـكنه فاجأه بسؤاله :

— لـماذا حاولت أن تبحث فى لوحتى عن شعورك أو شـعور الناس هنا « بالهدار » ؟ لـماذا لم تحاول أن تبحث عن شـعورى أنا به ؟ أم انها تخلو فى رأيك من أى شعور ؟

فوجىء أحمد بسؤال شريف ، قال كمن يتخلص من مأزق :

— معك حق .. لابد أن أعيد النظر فى لوحتك ... وأن يراها غيرى .

ثم أكمل وكأنما عثر على نجدة :

— فى بلدنا تلاميذ كثيرون ويحبون أن ...

وقاطعه شريف :

— أين هم ؟ اننى أسمع عنهم ولا أرى غيرك !

ثم تابع بنبرة من يسأل عن بديهية :

— لماذا لايكون عندكم ناد تلتقون فيه ؟

— كانت هناك دائما محاولات لانشاء ناد ولـكنها كانت تفشل .

— لـماذا ؟ ..

— كانوا يختلفون حول أشياء كثيرة : من يكون الرئيس ؟ وفى أى ناحية من البلد يفتح النادى ؟ ودائما كانت هناك مشكلة النقود

— اجلس وارو لى بالتفصيل لماذا كنتم تفشلون ؟

- ٦ -

فى هذا اليوم من صيف عام ١٩٥٤ ، وفى المسجد الـكبير فى قرية الزهايرة ، وبعد أن فرغ الناس من صلاة الظهر ، ومضى أكثرهم الى بيوتهم أو أعمالهم ، بقى عدد من شـبـاب القرية تجمعوا حول « رجب الصعيدى » الذى أصبح المسجد شبه بيت له !

كان المسجد بالنسبة لهم أيضـا أنسب مكان ، فالمسجد بسقفه المرتفع ، بنوافذه العالية ، باتساعه وموقعه فى الجهة البحرية من القرية يصبح فى الظهيرة وفى شهر يونيو أنسب مكان يأوى اليه من لا مأوى له ، أو من له مأوى لا يطاق فى حر الظهيرة ...

وقبل أن يصبح المسجد شبه بيت لرجب الصعيدى كانت أكثر البيوت فى القرية بيتا له ، فقد قضى سنوات شبابه يتنقل كأجير بين البيوت والحقول ... أجير يأخذ أجره مرة كل عام ، ثم مرة كل شهر ، ثم أدرك انه من الخير له أن يأخذ أجره مرة كل يوم ... ولـكنه أدرك هـذا بعد فوات الوقت .. بعد أن جف عوده وضاعت قوته .. وبعد أن أصبح النـاس فى القرية ، أصحاب الارض الذين كانوا يتنافسون عليه ويتزايدون فى أجره ، أصبحوا يلخصون قصته كلها فى كلمة واحدة « هـذا الولد لم تعد فيه فائدة ، لم يبق فيه جزء سليم غير لسانه ، لو أصابه المرض أيضا لاستراح الناس منه ، ومن كلامه » .

وكان هو بدوره يلخص حكمة حيـاته كلها فى كلمات قليلة لايمل من ترديدها لمن هم على شاكلته من الاجراء الذين يلتفون حوله حين لايكون لديهم ما يعملونه ..

« يا أولاد ... الواحد منا بلا عافية لا قيمة له عند النساء ، وعند صاحب الارض لا تبيعوا عافيتكم بالسنة أو بالشهر بيعوها باليوم .. فصاحب الارض يحب أن يرى العمى بعينيه ولا يرى نفر

الشهر جالسا فى الظل بدون عمل ساعة من النهـــار .. بيعوها باليوم ، وحين لايكون هناك عمل استريحوا وأنتم بعافيتكم ، فليس هناك ألعن من ألا تعرف الراحة الا وأنت مريض » .

ولم يكن كل الاولاد يقتنعون بكلامه .. كان هناك من يقول له :

– وأين هو الشغل الذى يأتى كل يوم أو حتى كل أســـبوع يارجب ، على الاقل يضمن نفر الشـهر كل يوم اللقمة والمـأوى ؟

وكان « عطية » الذى حل مكانه فى غيط الشيخ « عرفة » مأذون القرية وفى بيته .. كان عطية يقول له فى شبه تأنيب :

– أنت الذى ضيعت قواك مع النســـاء وفى الحشيش ، أنت الذى ....

ويقاطعه رجب بلهجة استخفاف :

– وماذا يعرف صبى مثلك عن النســـاء أو عن الحشيش ؟ يا مففل لاتساوى الدنيا شيئا بدون النساء ، ولا تساوى النســـاء شيئا بدون الحشيش !

ثم يضيف :

– عندما تكبر سأحكى لك الـكثير مما لا تعرف عن خفايا هذا البلد .. أما الآن فهذا وقتك لتجرى فيه كالجحش الصغير فرحان بقوتك يركلبك كل من يعلفك !

ويتـــدخل ولد آخر ليؤكد روح المزاح فى الموقف كله وحتى لايغضب رجب أو عطية :

– وانت يا رجب ... قل لنا ... كم تساوى الآن ؟

– أغلى قليلا من النساء وأرخص من الحشيش ، ولـكن هـذا البلد لايعرف قيمتى ، لا أحـــد يريد أن يدفع فى مليما ، حتى زوجتى التى أذقتها النعيم ، والتى كتبت باسمها البيت فى لحظة مزاج طردتنى منه ...

ولـكن رجب كان يحيا رغم ذلك كله ، ويعمـــل ، كأن يملأ بالشادوف الحوض الذى تشرب منه بهائم القرية على حافة الترعة، ويدير طلمبة الميـاه الجوفية ليملأ خزان الميـــاه بالمسجد .. ويطوف القرية وهو يقود المـاشية التى ستذبح فى الغد حين تكون هناك مناسبة للذبح – وقد أحاط عنق المـاشية بعقود خضراء من

فروع الشجر وحوله الاطفـــال يرددون نداءاته عن الذبيحة ، وأوصافها وصاحبها ، وعن سعر اللحم ، ومكان الذبح وزمانه لتعلم القرية بالنبأ الخطير ...

كان يعيش ، ولـكن ما يحير الناس فى أمره ان مثل هذه الاعمال لا تكاد تكفى لـكى يحصل رجل على قوته ، اما أن يرى هذا الفقير الدائم مسطولا دائما فمن أين اذن يحصل على ثمن الحشيش؟ قد يجود بعض النـــاس بالطعام ، ولـكن تجار الافيون والحشيش لايجودون به ؟ وأغلب الاعمال التى يقوم بها يأخذ أجرها حبوبا... لا أحد يعطيه نقودا حتى لايصرفها على الحشيش ... ومع ذلك فقلما يفيق وقلما يكف عن الـكلام بغير حساب . مثيرا قلق الناس أحيانا بكلامه ، ودائما بالطريقة التى يحصل بها على ثمن المخدر ! ولـكن هذا اللغز الذى يحير بعض الناس فى قرية « الزهايرة » لم يكن هو ما يثير الاولاد الذين اجتمعوا حول رجب الصـــعيدى فى هذا اليوم من صيف عام ١٩٥٤ كانت تلك حكاية قديمة ، أما الحكاية الجديدة التى يبدو أنهم وجدوها تصلح موضوعا للحديث فقد كانت تلك التى يرويها « عوض » أحـد الأجراء فى القرية ، يرويها فى اختصار :

– رأيت شريف بن عباس بك وأحمد بن الحاج ابراهيم ومعهم بعض التلاميذ يطوفون بالبيوت لجمع تبرعات من أجل فتح ناد بالبلد

وبالنسبة لرجب لم يجد فى المسألة كلها ما يهمه !

مط شفتيه قائلا : مالنا نحن وهذه الحكاية ؟

ووجد « عطية » فيها فرصة للمزاح قال لرجب :

– قد يمرون عليك غدا يا رجب فبكم تنوى أن تتبرع لهم ؟

– بالحصيرة التى أنام عليها فى الجامع .

– الأحسن أن تتبرع لهم بالجامع كله .. على الاقل ، ساعتها يمكنك أن تطلب منهم أن يعطوك بعض ما جمعوا من تبرعات مقابل الجامع ..

قال « رجب » متماديا فى المزاح :

– لست مغفلا حتى أفعل هـذا .. فلن يجمعوا من البلد أكثر من جنيهين .. تريدنى أن أعطيهم هذا الجامع بجنيهين ..

قال « عطية » بلهجة تتلاشى فيها الحدود بين الجد والمزاح :

– أنت مغفل فعلا ... فوجود ابن عباس بك معهم يحرج الناس ويجعلهم يدفعون ..

– أنت لا تزال جحشا صغيرا ... ولن تفهم ناس هـذا البلد الا بعد أن تكبر وتصبح حمارا ... النـاس هنا يشعرون بالحرج فى أى شىء عدا الفلوس ! هل تفهم ؟ أراهن انهم سيقولون لابن عباس بك وماذا دفع أبوك ؟

ويرد « عطية » بغيظ :

– « الشيخ عرفه » دفع أمامى خمسين قرشا .

– لا أصدق ان الشيخ عرفه يتبرع حتى بخمسة قروش !

– واذا ظهر أن كلامى صحيح ؟

– أكون قد جننت أو يكون « الشيخ عرفه » هو الذى جن !

قال « متولى » وهو آخر ولد انضم للجماعة ولـكنه يريد أن يؤكد أهميته بما يحمل من معلومات جديدة :

– سمعت انهم سيطلبون من الاهالى بعد صـلاة الجمعة ان يتبرعوا للنادى ، وانهم ...

وقوطع « متولى » :

– ما دخل الاهالى بهذا الموضوع ؟ هل هو مشروع للانارة ..

– النادى لا يهم غير التلاميذ .. ولن يدفع غير آبائهم .

قال « متولى » محاولا ان يوضح ما سمع :

– طبعا لن يدفع غير آباء التلاميذ ، لـكن التلاميذ يريدون ان يحرجوا آباءهم أمام بعضهم وأمام الناس ليدفعوا ... فكل واحد من الآباء يريد أن يلزم ابنه غيظه وبيته ولن يدفع للنادى الا محرجا!

قال رجب :

– الم أقل لـكم انهم لن يجمعوا شيئا يذكر ؟ وتريدونى ان اتبرع لهم بهذا الجامع ؟

– ٧ –

أمام دكان « الخلفاوى » جلس بعض التلاميذ مع بعض الاهالى حول « صبرى » الذى كان يقرأ لهم تعليقا على مشروع اتفاقية الجلاء .. كان التعليق يؤكد أن انجلترا ما كانت لتوافق على جلاء قواتها عن مصر لولا ما تتعرض له هـذه القوات فى منطقة القناة من هجمات الفدائيين المصريين ، وكان حلم الجلاء الذى ظل الشعب المصرى يناضل من أجل تحقيقه ما يزيد على سبعين عاما قد أصبح وشيك التحقق ، فانجلترا توافق فى بند من بنود هـذه الاتفاقية التى وقعت بالاحرف الاولى على ان تجلو بجيوشها جلاء كاملا عن مصر بعد عامين من التوقيع النهائى للمعاهدة ! على ان ما كان يثير الخلاف آنذاك هو بنـد ينص على السماح للقوات الانجليزية بالعودة الى قواعدها فى منطقة القناة اذا حصل هجوم على تركيا فى خلال سبعة أعوام من بدء الاتفاقية ... كان البعض ضد الموافقة على هذا البند .. وكان هناك من يقول : لقد صبرنا هذه الاعوام الطويلة فلماذا لا نصبر قليلا ؟

أما « صبرى » فكان يقول :

« ما دمنا عرفنا الطريقة التى ترغم الانجليز على قبول فـكرة الجلاء فلماذا لا نواصل الضغط بهذه الطريقة حتى يتحقق الجلاء بلا شروط ؟ ولماذا نصبر بعد كل هـذه السنين من الصبر ؟ وكيف نثق بأن الانجليز لن ...

وفوجىء صبرى فى هذا اليوم بمن يسأله فى موضوع آخر تماما غير ماكان يتحدث فيه :

– لمـاذا لم تنضم لجامعى التبرعات ؟

وتطلع « صبرى » فى عيون الجالسين حوله وكأنه ينتظر أن يرى استنكارا للسؤال الذى يغير الموضوع ... فوجد استنكارا فى بعض

العيون ، وفى بعضها الآخر فضولا لمعرفة اجابته على السؤال الجديد ، كان موضوع النادى قد أصبح يشغل الناس أيضا فى الايام الاخيرة ، وكان موقف صبرى من الموضوع يهمهم ، فهو الذى يقرأ لهم الصحف ، ويشرح لهم الاحداث ...

وتطوع « خيرى » وهو زميل « سمير » الذى ألقى بالسؤال ، زميله فى كلية التجارة .. تطوع خيرى بالاجابة نيابة عن «صبرى» الذى كان لايزال يستطلع الوجوه :

ـ من الخير ألا يزيد عدد المتسولين ..

وقال ثالث :

ـ أخبار الحملة لا تسر عدوا أو صديقا ..

أخيرا قال صبرى :

ـ ياجماعة اذا لم تتعاونوا معهم فاسكتوا عنهم ..

قالها بلهجة استنكار واضحة ...

ـ وانت لماذا لا تتعاون معهم ؟

كان سمير هو الذى يعيد سؤاله بصيغة أخرى .

وأجاب صبرى :

ـ يكفى أحمد .. لو كان وجودى ضروريا لما تأخرت ؟

ألح سمير :

ـ أصبحت لا تريد المجاهرة برأيك ..

ـ قلت رأيى أكثر من مرة ، فكرة النادى فى حد ذاتها فكرة جيدة .. ما عدا ذلك أمور جانبية لا تهم أحدا ..

عاد سمير يؤكد :

ـ طبعا .. لو انها فكرتنا ، لو انها لمصلحتنا ، أما أن نفتح ناديا حتى يتمكن ابن عباس بك من قضاء اجازته فى بلدنا فهذا هو السخيف .

تدخل « عمرو » وهو أصغر التلاميذ سنا ، وفيه نزعة للاستقلال بالرأى :

ـ دائما تأخذون كل شىء بروح سيئة .. يستطيع «شريف» أن يقضى اجازته فى القاهرة أو رأس البر ، أو على الاقل فى سراى ابيه ، ومع ذلك فهو يدور فى البلد من أجل عمل يفيدكم ولا كلمة طيبة عنه !

ـ قل لنا ما الذى جعل شريف يتذكر بلده فجأة ، ويعود اليها؟

ـ اذهب واسأله .. اذا كانت الاجابة تهمك .. أما أنا فلا يهمنى لماذا جاء ؟ يهمنى ماذا يفعل ؟ وماذا تفعل أنت ؟

قال « سمير » بنبرة لا تخلو من زهو :

ـ سأسافر بعد أيام الى معسكر أبى قير بالاسكندرية ضمن فوج من طلبة الكلية .. سنقضى شهرا فى تدريبات الحرس الوطنى والتصييف ..

ـ طبعا .. ولهذا لايهمك أن يفتح النادى أو لا يفتح ..

تابع « سمير » بلهجة من لا يعبأ بأى رد :

ـ كان لابد أن تحدث ثورة فى البلد حتى نرى البحر لأول مرة فى حياتنا .. !

وأضاف خيرى الذى يسانده دائما :

ـ حتى يصيف « شريف » فى الزهايرة .. !

قال صبرى فى ضجر :

ـ بهذه الطريقة يصبح كلامنا بلا قيمة سواء فى مشكلة النادى أو فى اتفاقية الجلاء ...

- ٨ -

أهالى قرية « الزهايرة » مثل غيرهم من أهالى الريف يعملون دائما كجماعات فى أعمال البذار والتنقية والحصاد ولكنهم يعيشون حياتهم بعد ذلك كأفراد .. !

بعيدا عن أوقات العمل لا يلتقى الناس فى قرية الزهايرة كجماعة الا فى المناسبات .. فى المآتم وفى الأعراس ، وفى الموالد ، وفى المساجد لأداء الصلاة .

ربما لهذا السبب يتشبث الناس فى قرية الزهايرة وفى غيرها بهذه المناسبات ولا يتخلفون عن أداء هذا النوع من الواجبات ، فهى فرصتهم الوحيدة ليلتقوا فى غير أوقات العمل ويتكلموا فى شئون حياتهم كما يتكلم الرجال المستريحون ، وهم فى الغالب يتكلمون فى لهفة غير مبالين برهبة الموت . ولا بجلال العبادة ، ويستمرون فى الكلام حتى يرتفع صوت فى المسجد أو الخيمة يحذر وينذر ويدعو الى الصمت توقيرا لكلام الله أو لبيته ...

ولكن فرصتهم الحقة فى اللقاء تأتى فى الموالد والأعراس ... انها تصبح فرصة للكلام وللفعل معا ... الكلام والفعل اللذان يتفجران من وجود الجماعة ذاتها ... وبعيدا عن العمل ... وتبقى مثل هذه الفرص دائما أقل من حاجة الناس للكلام الحر وللفعل الطليق .. وحين تجىء يتزاحمون عليها .. تتزاحم عواطفهم وكلماتهم ، وأيديهم وأرجلهم ، ولأسباب كثيرة جدا .. يبدأ الشجار .. يبدأ بالكلمات ثم بالايدى ... ما من عرس أو مولد فى قرية « الزهايرة » أو فى غيرها يمضى دون شجار ، ان لم يكن بين الكبار فبين الصغار ، وحين تسكن العاصفة ، ويبدأ العقلاء فى البحث وراء الأسباب يهولهم اتساع المسافة بين الاسباب والنتائج ..

ويرسخ فى وجدان الجماعة أو كبارها على الاقل أن التجمع خارج دائرة العمل نذير سوء ، وينطوى دائما على ما لايكون التنبؤ بعقباه من الشرور ، ففى هذا التجمع شىء لايمكن الامساك به أوالسيطرة عليه .. شىء فيه من الشر بقدر ما فيه من الغواية والجاذبية والخير .. شىء ينتظره الناس بلهفة وبفارغ الصبر حتى اذا جاء وضعوا أيديهم على صدورهم وقالوا : اللهم اجعله خيرا .. وحين سمع الحاج ابراهيم من ابنه أحمد لأول مرة أول كلام عن فكرة النادى ، انقبض قلبه .. وعاودته ذكرى محاولات سابقة فاشلة قام بها تلاميذ آخرون من قبل . فالنادى فى نهاية الأمر فيه بذرة هذا التجمع الملعون الذى لايستريح اليه عاقل فى القرية مهما بدت دواعيه مقنعة .. ومهما كانت عناصره متآلفة ..

ولكنه ترك ابنه حتى فرغ من كلامه .. ولم يشأ أن يصدمه فى بداية الأمر خاصة وان «شريف ابن عباس بك الموارى » يشاركه فى الحماس للفكرة وللعمل على تحقيقها ...

قال فى نفسه :

قد يعمل الناس حسابا لابن عباس بك وحينذاك لايجب أن أبدأ بخذلان ابنى .. واذا وقع ما أتوقعه فهى فرصة ليتعلم الولد بعض الحقائق بنفسه ..

وحين كان بعض الناس يلومونه قائلين :

— كيف تترك ابنك ياحاج يمر بالبيوت من أجل موضوع سوف يجلب الصداع للبلد كله ؟

كان يقول لهم :

— دعوهم بعض الوقت انهم أغرار .. وسوف يلحق بهم الصداع مما يلقونه من كلام الناس .. وسوف يتخلون هم عن الموضوع !

ولكن الصداع الحقيقى بدأ يلحق رجال القرية الكبار مما يسمعونه من التلاميذ ، وبالتحديد « من شريف بن عباس بك » ، فى البداية كانوا يظنونه سوف يدرك المغزى الحقيقى لتأجيلهم وتسويفهم فى دفع التبرع ، وسوف يدرك ان هناك فارقا بين بشاشة اللقاء ، وسخاء الوعود ، وبين دفع الفلوس ، ولكنه كان يأخذ كلامهم مأخذ الجد ، وحين يحدد أحدهم موعدا لدفع التبرع

يذهب اليه فى نفس الموعد فاذا لم يجده ، قال له فى أول مرة بعدها وأمام كل الناس :

ـ كيف تخلف وعدك ياحاج ؟ ألم تعلن اقتناعك بفكرة النادى .

وأصبح الخوف الاعظم لكبار الرجال فى القرية أن يتعلم أولادهم طريقة « شريف » فى الكلام والعمل .. وأن يتجرءوا فى الحوار والمناقشة ..

ولم يكن يخطر ببال أحد أن تصل الامور الى حد أن « شريف » فى المسجد بعد صلاة الجمعة ليشرح للناس أهمية أن يكون فى البلد ناد ، وكأن النادى هو الحل السعيد الذى كانت تنتظره البلد لتصبح أيامها سعيدة .. !

ان أحدا لم يفهم كل كلمة قالها شريف فى هذا اليوم مع أن شريف لم يقل كلاما كثيرا .. فى هذا اليوم .. !

ولكنهم جميعا فهموا لعبة أولادهم حين بدءوا يطالبونهم أمام الناس بالتبرع .. لقد بدءوا بالعمدة .. وكان لابد أن تتوالى التبرعات فلا أحد يحب أن يبدو أقل من أحد فى هذه المواقف ..

« عباس بك » وحده هو الذى نجا من هذه المصيدة لأنه لا يحضر للصلاة فى يوم الجمعة ولا فى غيرها ... وكبت الرجال غيظهم من عباس بك ومن ابنه ، ومن أبنائهم جميعا ..

وكادت خطة التلاميذ تنجح لولا تدخل « رجب الصعيدى » فى الوقت المناسب ، روعته السهولة التى تخرج بها النقود من جيوب الناس ، طوال عمره ، وحتى فى أيام الانتخابات لم يبصر النقود تخرج بهذه الطريقة الجماعية المثيرة ، ، لتوضع فى يد من لايحتاجها ولا يستحقها ، وصرخ محتجا فى قلب الجامع :

ـ يا بلد لا تعرف الخجل ... ولا تعرف الحق .. تدفعون من أجل النادى ولا تدفعون لاصلاح طلمبة المسجد المطلانة من شهور .. ولا تفكرون فيمن يديرها لكم ..

وامتدت الأيدى تنوشه من كل جانب ، وبدأ الشجار الملون .. وتدخل الرجال الكبار حتى لا يتطور الشجار ، ولكنهم جميعا ودون اتفاق وجدوا فيما حدث من الشجار .. فرصة للتخلص من فكرة النادى الى الأبد ! لقد تعمدوا أن يتأخروا قليلا فى اطفاء

الحريق .. حتى تكون العبرة واضحة والحجة قوية ، وبعدها بدءوا يتكلمون فى رصانة لأبنائهم ولغيرهم ..

ـ قلنا لكم .. مثل هذه الامور لا تجلب سوى المصائب .

ـ لم تكن تلك سوى البداية .

ـ كان يمكن أن يكون هناك قتلى وجرحى فى مثل هذا اليوم المشئوم !

ـ الحمد لله انها اقتصرت على اصابة رجب !

ـ مثل هذه المواقف تسمح للأرازل أن يكون لهم صوت وأن يجروا أولاد الناس الى الهلاك !

لقد أصيب رجب ببعض الكدمات والجروح ، وعالجوه منها كما أصابوه بها ، ولكنهم اطمأنوا الى ان فكرة النادى قد ماتت الى الأبد ..

- ٩ -

فى منزل الحاج ابراهيم اجتمع الرجال الكبار فى القرية لبحث الموقف ، كانت تلك أول مرة يوشك فيها أولادهم أن يخرجوا من أيديهم ، والآباء فى قرية الزهايرة مثل الآباء فى كل القرى ينظرون الى أبنائهم كأنهم جزء من ثروتهم وكل فلاح يطمئن الى النقود التى فى يده أكثر مما يطمئن الى تلك التى فى جيبه ..

وقد هالهم ان الاولاد الذين كانوا يتجمعون حول « رجب الصعيدى » فى المسجد كانوا يعرفون ما يبيته التلاميذ من طلب تبرع الاهالى بعد صلاة الجمعة ويرددونه بينما الآباء أنفسهم يفاجأون بما يحدث ..

وكان الشيخ عرفة مأذون القرية ووالد « سمير » هو الذى أوضح هذه الحقيقة للرجال بعد أن سمعها من « عطية » الذى يعمل عنده نفرا بالشهر !

وقال الحاج ابراهيم : لا أرى حلا سوى أن يكون كل واحد فينا مسئولا عن ابنه .. !

ـ كنا فى سلام ، وكان الاولاد فى حالهم ، حتى جاء ابن عباس بك !

فهم الحاج ابراهيم انه المقصود بهذا التعريض .. قال :

ـ لا تنسوا ان مثل هذه الامور كانت أحيانا تحدث .. ومهما كان رأيكم فى « عباس بك » ، فقد كنا جميعا نتسابق الى زيارته حين يجىء ايام الوفد واذا كانت الظروف قد تغيرت فليس من المروءة أن نتغير .. انه على كل حال ابن بلدنا .. ورجل له مركزه فى البلاد كلها ..

قاطعه رجل :

ـ متى كان عباس بك يعرف بلده الا أيام الانتخابات وبيع

المحصول ؟ ومتى كان ابنه يعرف أبناءنا ؟ ومتى كان أقاربه يعملون لنا حسابا ؟

وأضاف آخر :

ـ اذا كانت الظروف قد تغيرت فلماذا لا تتغير لمصلحتنا كذلك

ـ وهل مصلحتنا أن نعادى الناس ؟

قالها الحاج ابراهيم فى ضجر وقوطع :

ـ من مصلحتنا الا نكون تبعا لأحد .

ـ وان نرى فيهم يوما كما رأوا فينا أياما .

ساد الجلسة توتر مفاجىء .. وتبادل الجميع نظرات قلقة .. ووضع الحاج ابراهيم حدا لهذا كله بقوله :

ـ انتم فى بيتى .. وهذا يجعلنى أحتمل مالا أحتمله فى غير هذا المكان .. ولكنى أريد أن أقول لمن لايرى أبعد من أنفه .. اننى اذا كنت أساير عباس بك وابنه فمن أجل مصلحة الزهايرة أولا وأخيرا ، صحيح انه اليوم ليس فى الحكومة .. ولكن لا تنسوا اننا كذلك دائما ... ولكنه لايزال يمتلك ما يقرب من مائتى فدان .. وعلاقاته بكبار الموظفين فى المديرية وفى المركز كما هى ، واذا كانت الظروف تتغير كما تقولون .. فقد تتغير لصالحه مرة أخرى وهذا ما رأيته يحدث دائما أمام عينى فى السنوات التى مضت من عمرى وهذا ما قد يحدث فى المستقبل .. واذا كان لكم رأى آخر فأحب أن أسمعه ..

وكانوا جميعا يعرفون انه لايحب أن يسمع رأيا بعد رأيه ولكن تلك كانت طريقته فى الكلام ! وفى التأثير على الناس .. فراحوا يشربون القهوة ويفتحون طرقا للكلام ..

- ١٠ -

قال « صبرى » «لأحمد » وهما مسترخيان تحت أشجار التوت التى فى رأس الحقل

ـ لأول مرة أعجب بصاحبك !

تطلع اليه احمد دون أن يخفى دهشته وقال :

ـ يبدو ان مخالفتى هى هدفك الدائم !

قال « صبرى » بدهشة حقيقية :

ـ تعنى ان اعجابك به قد تأثر بما حدث أخيرا فى الجامع !

اعتدل أحمد فى جلسته وكأن ما سيقوله لا يتفق مع الاسترخاء :

ـ نيس الأمر كما تقول تماما .. لكن ما حدث أخيرا سمح لى لأول مرة أن أرى فيه أشياء صدمت فكرتى عنه .

ـ لم تقل لى ابدا فكرتك عنه .. كنت فقط تدعونى لتقديم فروض الولاء ..

ـ لا تكن سخيفا ، فلست أملك حتى الآن فكرة واضحة .

ثم استدرك :

ـ لكن لماذا لا تقول لى أولا ماذا أعجبك فيه ..

ـ بالتأكيد سأقول لك .. بعد أن تكمل أنت ..

ـ لو عرفته مثلى عن قرب لأعفيتنى من الشعور بالبلاهة وأنا أصف لك احساسى بأنه أذكى وأشجع من عرفت ، لكن تلك هى الحقيقة التى كنت لا أعرف كيف أدخلها فى رأسك .. مايشجعنى الآن على الكلام اننى أتكلم عن موقف محدد رأيته أنت ، حين بدأ يشرح للناس فكرته عن النادى فى المسجد .. تكلم معهم كما كان يتكلم معنا .. تكلم عن أهمية أن يلتقى الشباب المتعلم ، وان يفكروا معا بصوت مرتفع .. وبحرية .. قد يبدءون بالتفكير فى مشاكلهم ولكنهم سوف يصلون الى التفكير فى مشاكل القرية

كلها .. لا أذكر نص كلماته .. ولعلك أنت تذكر ، ولكننى شعرت بمحنته .. أدرك بحسه الصحيح ، وبعد لحظات ان الناس ليسوا معه ، وانهم لايفهمونه تماما .. انهم فقط يتطلعون اليه .. أربكه هذا تماما .. أن يعجز عن توصيل فكرته .. فجأة فقد ذكاءه اللامع .. وفقد حيويته .. وفقد سحره ، أنت تصبح أبله تماما حين تتحدث الى أبله .. ما جدوى ذكاؤك ؟ انه يفرقه فى نظراته البلهاء ! ويصبح حجمك فى النهاية بمقدار ما يتسع له رأسه ! وفى الوقت الذى عجز فيه « شريف » عن توصيل فكرته لهم كانت وجوه الناس تعبر فى اقتدار عن عجزهم عن فهمه وعن يأسهم منه !

لقد تفوقوا عليه .. وصلوا اليه بيأسهم دون أن يصل اليهم بفكرته وبأمله !

وحين بدأنا بجمع التبرعات كانقاذ للموقف .. وحين بدأ الناس يدفعون كان هو يشعر ان الذى انتصر فى هذا الموقف هو « شريف ابن عباس بك المواردى » وليس شريف وحده .. وان الحرج كان هو سيد الموقف .. شىء آخر .. رأيته فى عينيه عندما بدأ الشجار .. لأول مرة رأيته خائفا .. خائفا بحق .. هو الذى لم أبصر فى عينيه سوى الثقة والفرح .. ربما كان هذا هو أول خوف حقيقى فى حياته .. الخوف الاول المخيف .. خوف انسان يصطدم بعالم لايعرف قواعده .. وكان يظن انه يعرف . ربما خطرت بباله فكرة الموت .. فهؤلاء الذين كانوا يصلون فى وداعة .. وينصتون اليه فى بلاهة .. قد انقلبوا فجأة يتقاتلون فى شراسة كالوحوش .. فأى شىء يستحيل وقوعه ..

خاف أبى ان يصيبه أى شىء فأحاطه بذراعيه .

هذه الحركة التى أراد بها أبى ان يطمئنه جعلته يشعر أكثر وأعمق بالخوف .. وقبل أن يعود الهدوء الى المسجد .. منظره وهو خائف لايفارقنى .. كنت دائم الاعجاب به ، لكن تلك أول مرة أشعر فيها نحوه ببعض الحب ، هل تصدق ؟ تصور قطعة من البللور النقى يصيبها شرخ ! وانفجر صبرى بالضحك .

قال أحمد فى غضب :

ـ ماذا يضحكك ؟

ـ طريقتك فى الاحساس بالمواقف وبالناس وفى تحليلها ؟

ـ قل لى انت .. كيف كنت ترى هذا الموقف ؟

ـ أولا شريف ليس كما تراه قطعة من البللور النقى انه قطعة من الصلب ! لقد ترك لك مهمة أن تصور موقفه شعرا وبدأ يتصرف بشكل أثار اهتمامى جدا .. أولا كان هو الانسان الوحيد الذى أهتم اهتماما حقيقيا بما حدث « لرجب الصعيدى » بعدما حدث فى المسجد .. أخذه الى السراى... وأعاد تنظيف الجرح وتضميده .. كانوا قد اكتفوا كالعادة بوضع ملعقة بن على الجرح .. لوقف النزيف .. وأهم من ذلك جلس معه ساعات طويلة يتكلمان.. المهم أن تعرف فيم كان يتكلم معه .. مع رجب ؟ وكيف ؟

ـ وهل عرفت أنت ؟

ـ طبعا ..

ـ من أخبرك ؟

ـ رجب يتكلم مع الجميع .. انت وحدك الذى لم تستمع اليه بعدما حدث !

ـ ماذا سمعت من رجب ؟

ـ تلك قصة أخرى طويلة لا تستحق أن تعرفها الآن .. يهمنى أن تعرف ان شريف لم ينسحب بعد هذه الموقعة ، ولم يستجب لنصح أبيه له بأن يبتعد عن جو البلد ، ويسافر الى رأس البر! وأكثر من هذا قال أمامى وأمام عدد من التلاميذ :

ـ ماذا كان الهدف من النادى ؟ مكان نلتقى فيه ، تكوين فريق لكرة القدم ، ومكتبة وترابيزة بنج بنج .. المسألة سهلة .. لنبدأ بما لايحتاج الى نقود .. تكوين فريق لكرة القدم .. عندى كرة .. وجرن الوسية الآن خال من المحاصيل ، وسيكون مكان اللعب هو مكان اللقاء .. المهم أن نصل الى الجوهر .. أو الى بعضه .. !

هذا سلوك انسان لا يهزم بسهولة ولا يطيق الهزيمة .. وهذا ما يعجبنى فى صاحبك ..

ـ وصاحبك أيضا .. ألا ترى اننا نقترب منه معا ؟ أليس كذلك؟

ـ نعم .. ولكن ما الذى تريده انت منه ؟ وما الذى أريده ؟

ثم أضاف صبرى بلهجة مستفزة :

ـ أظن هذا هو السؤال .

- ١١ -

قال شريف لأحمد وهما يجلسان على حافة الملعب يتصبب منهما العرق ، وتتلاحق الانفاس :

ـ أنت تجيد اللعب بالكلمات .. أما الكرة .. ؟

ويقاطعه أحمد بلهجة تحمل أكثر من معنى :

ـ انتظر بعض الوقت حتى أتدرب .. وسترى اننى سوف أجيد مثلك اللعب بكل شىء ...

اندفع شريف دون أن ينتبه لغمزة أحمد :

ـ الذى يجيد اللعب بالكرة يجيد كل لعبة أخرى .. فكرة القدم هى الفن الذى يحتوى كل الفنون .. ؟

قال أحمد ضاحكا وهو يقرب زمزمية المياه من فمه :

ـ هل يغنى فن الكرة عن فن الشعر ؟

ـ لا ..

ثم تابع شريف بعد أن أبعد زمزمية المياه عن فم أحمد محذرا له من الشرب وهو فى مثل حالته .

لا أخاف على فن الشعر من فن الكرة .. ولكنى فى الحقيقة أخاف على فن المسرح ... فالكرة هى المسرح .. صراع صامت .. وحوار بلا كلمات .. أو بكلمات بسيطة يفهمها كل الناس .

ـ من حسن الحظ أن الناس كلهم يحبون الصراع الناطق لا الصامت ولهذا لا خوف على المسرح أيضا

ـ ولا خوف عليك اذا لم تفلح فى لعبة الكرة .. فصبرى أبرع منك بكثير .. ويكفى واحد فى العائلة ..

قال أحمد فى شبه غيظ :

ـ على كل حال ليست الكرة شيئا خطيرا فكثير من الدول المتخلفة تجد عزاءها فى التفوق فى الكرة ...

قال شريف :

— ياسيدى لا تغضب .. سننتظرك حتى تتدرب كما تشاء .. وسنرى .. المهم اننى سأنتظرك الليلة عندى فى البيت .. سيكون معنا شخص ثالث ، أحب أن تراه ، وأن تتعرف به ..

— من هو ؟

— أخشى اذا قلت لك ألا تجىء !

— أحب أن أعرفه .. واذا كان هنـــاك ما يمنع ، فيجب أن أعرفه أيضا ..

— محمد الجندى ...

شعر أحمد بنوع من الصدمة ، ولـكنه لم يترك هذا يظهر عليه.. كانت دوافعه لزيارة شريف أكثر وأعقد من أن تتركه يعتذر ، ولم يكن يحب أن يشعر شريف انه يخشى مواجهة أى شخص أو موقف قال أحمد :

— سأحضر .. لـكن متى ؟

— فى المساء .. بابا مسافر منذ يومين وسنأخذ راحتنا فى السهر فى الحديقة .

ثم تابع وقد بدأت أنفاسه تهدأ .. بينما بدأت أنفاس أحمـد تتلاحق :

— أتعرف من أهم شخصيتين عرفتهما فى هذا البلد ؟

واستفز السؤال أحمد .. تمنى لو لم يكن السؤال ولا الجواب الذى لا يعرفه وأنصت الى شريف وهو يقول :

— محمد الجندى .. ورجب الصعيدى !

— الله يلعنك ...

قالها بغيظ ...

ولم يغضب شريف بل أمعن فى الضحك حتى استلقى على ظهره.

- ١٢ -

ما من تلميذ فى قرية الزهايرة اخضر شاربه ، وانفتل عوده الا وتلقى من أبيه قائمة بما ينبغى أن يحذر الوقوع فيه ، وتبدأ القائمة :

« لا تدخن .. لا تجلس فى المقاهى .. لا تلعب الورق .. ثم تتوالى المحظورات .. ولـكنها بالتأكيد وبغض النظر عن أى ترتيب كانت تشمل هذا التحذير : لا تجلس مع « محمد الجندى » فى مكان ! و « محمد » من عائلة الجندى الشهيرة بالقرية وهى عائلة معظم أفرادها كانوا ضباطا فى الجيش أو فى البوليس اشـــتهروا بالصرامة والحدة والطيبة جميعا ، أبعدهم ثراؤهم الوظيفى عن الناس .. ولـكن طيبتهم كانت تقرب بعض الناس منهم .. وظلت هذه النسبة محفوظة حتى كبر محمـد الجندى وكان فشـله فى الدراسة أول شىء أخل بهذه النسبة ، كان عليه أن يجرب نفســه فى أعمال كثيرة .. فاختلط بالاهالى اختلاطا شديدا مرة كسائق جرار ، ومرة كتاجر ، وثالثة كفلاح يشرف بنفسه على زراعة أرض أبيه التى لم تكن تتجاوز العشرة أفدنة ...

وأكد فشله فى هذا كله أن تخلفه فى الدراسة ليس لمجرد قصور فى ملـكاته الدراسية ، بل لابد ان هناك عيبا رئيسيا فى شخصيته، يقول بعض الناس انه ملول ضجر لا يصبر على ما يريد ولا على ما يريد الآخرون ، ولا يحتمل مراوغة الحيـاة والنـاس فى قرية الزهايرة ، تلك المراوغة التى هى جزء من الحياة اليوميـة ولأن « محمد الجندى » كان يمتلك قوة حصان حقيقى فلم يكن يجد معنى لفكرة الصبر السقيمة التى يستند اليها الناس فى رحلة حياتهم العرجاء ، ولم يكن يجد معنى لأسلوب المراوغة ، وحين لايجد نتيجة من استخدام لسانه ، كان يستخدم يديه وأحيـانا رجليـه .. وضجت به أسرته قبل أن يضج به الناس ، واختلفت أحكام الناس

عليه .. فقال بعضهم انه لم يضرب الا أشخاصا تمنى الناس جميعا أن يضربوهم ولم يقدروا على ذلك .. وانه دائما مع المظلوم ضد الظالم وقال آخرون : ماذا يعرف بغل كهذا عن الظلم والعدل ؟ وماذا تنتظرون ممن لا يحسن عملا ولا معاملة ؟

وكان هناك من يتحدث عن وداعته وعطفه على العاجز والفقير ، وكان هناك من يتحدث عن كلفه بالنساء ، وفضائحه مع العاملات فى الحقول !

ولكن الجميع كانوا يتفقون على بعض صفاته ، فأنت لا تراه الا فى حالة من اثنتين .. صاخبا مجلجلا بالضحك والسرور أو صامتا غارقا فى الكآبة ...

أحيانا يسيل رقة وعذوبة كطفل رغم ضخامة جسده المائل الى القصر ، ورغم شاربه الكثيف الذى يغطى شفته العليا دائما ..

وأحيانا يهدر بالغضب ويتطاير الوعيد من عينيه الحادتين كعينى لص تعود أن يتفحص كل ما يراه !

وكان الجميع يتنفسون فى راحة حين يرحل عن القرية .. ذلك أن أحدا من أهالى القرية لم يكن يعرف متى يغضب محمد الجندى ولا متى يرضى ؟ ولا لماذا ؟

ولم يكن هناك أيضا من يعرف متى يرحل ؟ ولا متى يعود ؟ كانت هناك قصص تروى عن تنقلاته فى البلاد العربية واشتغاله بشتى المهن ، وزواجه أو طلاقه فى البلاد التى حل بها أو رحل عنها ، وسفرة أو سفرتان الى اليونان وتركيا على ظهر بعض المراكب .. وحكايات كثيرة لا يجرؤ أحد على التحقق من صدقها أو كذبها .. كل ذلك وعمره لايتجاوز الثلاثين عاما !

وحين أخبر شريف أحمد بالموعد الذى دبره ليلتقوا ثلاثتهم شعر فى البداية بنوع من الصدمة تحول مع الوقت الى شعور بالفرح .. فها هو مع شريف يقتحم كل العوالم التى كانت شبه موصدة ، والتى كان يرتادها بالخيال .. وبما يرويه عنها الناس .. وعاد الى المرات القليلة التى رأى فيها « محمد الجندى » ، وتبادل معه السلام أو بعض الكلمات .. لم يجد فيها ما يمكن أن يضيف شيئا خاصا الى الرصيد العام عنه !

كان آخر ما سمعه عنه انه يشترك مع بعض ضباط الجيش فى أعمال المقاومة ضد الانجليز فى منطقة القناة .. ! وهى الاعمال التى كانت تستهدف تهديد الوجود الانجليزى فى مصر والتى اسفرت عن اتفاقية الجلاء التى كان الشعب كله لايزال يتناولها بالمناقشة!

كان « أحمد » يود لو يعرف شيئا عن هذا الموضوع ، وكيف أمكنه وهو مدنى أن يشترك فيها مع ان الذين يقومون بها هم — كما يردد الناس — ضباط فى الجيش ، وان كانوا يقومون بها باعتبارهم وحدات فدائية شعبية لا صلة لها بالحكومة !

لن يصل الى بعض هذا كله الا اذا نجح فى كسب ثقته ! لابد أن شريف كلمه عنه ! ترى ماذا قال له ؟ وما معنى اختياره بالذات ليقابل محمد الجندى ؟ من يدرى قد يصبح كلاهما محمد الجندى وشريف مفتاحا للآخر ؟

وقد يبصر « نجوى » هذا المساء .. نعم .. لايريد أكثر من أن يراها .. مجرد رؤية .. أخيرا خانته ذاكرته .. أقدم صور الملكية واشدها بؤسا ، أحيانا يعجز عن تذكرها فيشعر بأنه يسقط فى فراغ مخيف ..

ماذا يريد منها ؟لا شىء ، والافضل أن يقول لايدرى ؟ وهل عرف ماذا يريد حقا من شريف أو من محمد الجندى أو حتى من حياته ؟

بعد أول وآخر مرة رآها فيها .. كان يدعوها حين ينفرد بنفسه .. وكانت تجىء . كما جاءت فى الحقيقة .. دون ان تعيره أقل اهتمام .. وفى اللحظة المناسبة ترسل تعليقها اللاذع وتمضى..

ولكن وجودها .. مجرد وجودها .. مجرد تذكر هذا الوجود .. كان يذيب كل ما هو صلب فى حياته ... كانت الحدود التى يراها لنفسه ويراها له أبوه .. الحدود التى رأى فى ظلها عالم القرية والمدينة .. الماضى والحاضر والمستقبل .. ما يجوز وما لا يجوز .. الممكن وغير الممكن ... هذه الحدود كلها تتلاشى ، وتصبح الدنيا كلها وطنا للممكن ، فقط لابد أن تكون هى هناك .. متجسدة على الاقل فى خياله .. أن تطل بقوامها وكبريائها وسمرة بشرتها ، ودقة ملامحها ، وسواد عينيها السوداوين على هذه الدنيا لتظل موطنا للممكن لكن ما ان تتأبى على خياله .. حتى يسترد كل

شىء صلابته وتفصل الحدود بين الممكن وغير الممكن ..
الحدود بينها وبين شريف تتلاشى أحيانا حتى يراهما وجهين لحقيقة واحدة ، يريدها ولا يريدها .. يحبها بقدر ما يخشاها ! وكلما تصور مرة انه يوشك أن يمسك بشريف .. انفلت منه كما ينفلت الشعاع .. متخطيا حدود الاعجاب والحب والكراهية والنجاح والفشل .. !

فى اللحظة التى شعر فيها نحوه ببعض الحب .. فى اللحظة التى رآه فيها انسانا يخاف ويعجز ويوشك أن يلتمس دفء المودة .. فى هذه اللحظة ... وفيما بعدها اكتشف أن ما كان يظنه وضوح شريف وبساطته ليس سوى وهم .. أصبح شريف يتجنب الحديث عن هذه اللحظة .. ! أصبح يتجنب الحديث عما يريد أن يقوم به! وحين قال له أحمد مرة عقب ما حدث فى الجامع مقلدا طريقته فى البساطة ولمس المشكلات دون حرج :

— لماذا تظن ان الفلاح المصرى يتجنب بشكل تلقائى أن يقول الحقيقة لأول وهلة عن أى شىء تسأله عنه ؟

أجاب شريف فى نبرة لا تخلو من الغضب :

— الفلاح المصرى غبى جدا .. ويبدو غباؤه حين يبذل جهدا خارقا لكى يخفى عنك ما لا أهمية لاخفائه بينما يكشف فى بلاهة أخطر الاشياء عن نفسه ، دون أن تطلب منه ذلك ؟

وقال له أحمد فى هدوء متعمد :

— ألم تلاحظ انك لم تجب عن سؤالى .. ؟ وانك ما زلت حانقا .. لماذا أنت حانق ؟

قال شريف فى غيظ حقيقى :

— طظ فى سؤالك وفى كل الفلاحين ..

ولكنه ما كان ليضحى بعلاقته لمثل هذه الامور الصغيرة التى تتبدى بين حين وآخر ، فشريف الذى يقوده الى كل العوالم التى كانت شبه موصدة .. لايزال هو نفسه أكثر هذه العوالم غموضا وسحرا !

- ١٣ -

حديقة سراى المواردى غارقة فى غبش المساء ، وفى السماء ، فى الجانب الغربى منها كان ثمة بدر هزيل يرسل ضوءا شاحبا لايكاد يبين حين يمتزج بالحشيش الاخضر فى أرض الحديقة ، أو بالارض المزروعة خارجها ، ولكن أوراق الشجر المنداة بفعل الرطوبة والتى كانت تتلقى فوقها قطعا من الضوء الفضى بحجمها تماما ... وتحول دون سقوطها فوق الحشيش الاخضر .. هذه الاوراق وحدها هى التى اكتسبت لمعانا خفيفا ووجودا متميزا فى تلك الليلة التى يوشك فيها كل شىء ان يفقد معالمه !

ومن كل جانب كانت أصوات الليل فى القرية تزداد وضوحا واقترابا وتصبح جزءا من الصمت الذى تخدشه الاصوات الانسانية وحدها !

قال شريف وهو يقدم أقداح الشاى الذى أحضره « رجب الصعيدى » الذى أصبح يعمل عندهم فى السراى ، قال لمحمد الجندى :

— والآن يا أخ محمد ... دعنا نشرب معك هذا الشاى على ضفاف الخليج ، حيث رست سفينة سندباد الزهايرة ..

واكتفى محمد الجندى بأن هز رأسه مبتسما وهو يتناول الشاى.

كانت تلك أول مرة يرى فيها أحمد ، شريف وقد جلس صامتا ما يقرب من ساعتين ، عدا سؤال أو ضحكة أو تعليق عابر .. ! وكان « محمد الجندى » هو الذى يتحدث وحده طول الوقت .. وصوته القوى الرائق يكتسب فى سكون الليل ، ومن خلال أصواته الرتيبة المعتادة ، ألفة خاصة ومودة قد تشك فى وجودها لو أنك سمعته فى النهار !

وكان قد آثر أن يروى القصة من أولها ، أول هروب من المدرسة

ثم من المدينة ثم الى القرية ثم الى القاهرة ثم الى الشام ثم الى الخليج .. وهناك توقف وتوقفوا معه يحتسون أكواب الشاى !

قبل أن تغرب الشمس كان حاجبا « محمد الجندى » الكثيفان يلقيان على عينيه ظلا يرقق من حدة النظرة فيهما ! ومع انه لم يبق من ملامحه فى غبش المساء ما ينم عن طابع نظرته الا ان صوته وصوت ضحكاته كان يوحى بأن هذه النظرة الصارمة قد استحالت بدورها الى نظرة ترتعش بالمودة والألفة !

وأحس أحمد ان « محمد الجندى » صادق فى كل كلمة قالها.. نعم .. هذا صادق من نوع آخر ، واذا كان شريف يمارس الصدق لأنه لايجد نفسه مضطرا للكذب ، فمحمد الجندى يمارس الصدق لأنه لا يقدر على الكذب حتى لو أراد ..

وفكر أحمد دون أن يعلن تفكيره « ان الصدق ترف يملكه الرجل الغنى أو الشجاع ، أما الفقراء والجبناء فمن حقهم أن يملأوا العالم بالاكاذيب ! »

كانت القصص التى رواها كلها تكاد تكون فى النهاية قصة واحدة .. يختلف الزمان والمكان والظروف ولكن الجوهر واحد .. فثمة دائما شخص مثقل بما لا قبل له باحتماله .. البعض يراه مثقلا بالشحم واللحم والعضلات ، والبعض يراه مثقلا بالغرور والحماقة والقوة .. وبالنسبة لأحمد فهو مثقل بما ينوء به عشرة رجال من الانفعالات والمشاعر .. كل ما تحت جلده هو شعور قابل للاشتعال ..

وتبدأ القصة دائما بلحظة انفعال .. ان شرارة الانفعال تجد بجوارها دائما أكواما من المواد السريعة الاشتعال .. أكواما من الحب والرغبة والحماسة والفضول والشوق ، وتتداعى الانفعالات المتقاربة ويشتعل الحريق وينفرد محمد الجندى آنذاك عن كل من حوله من الناس بايقاع خاص فى الشعور والفكر والعمل ، ويبدا الصدام بمن حوله .. وفى لحظة يلوح له ان التصدى للعالم الخارجى أسهل بكثير من التصدى لما فى داخله من قوى عنيفة وهائلة .. ودائما يهزم العالم الخارجى فى أول موقعه.. فيندفع محمد الجندى متوقعا انتصارات جديدة ولكن ما ان ينتبه العالم الخارجى الى

طبيعة الغازى الجديد حتى يتجمع ضده ويوجه اليه ضربته ، ولا يكون أمامه الا أن يبحث عن مكان آخر وناس آخرين يختلس منهم بعض انتصاراته وقبل أن يتنبهوا ويتجمعوا ضده من جديد ..

وهكذا بدا له ان خلاصه الدائم فى التحول الدائم .. الاستقرار عدوه .. وأعظم أصدقائه الاعمال التى تحتاج الى مشاعر جامحة وسلوك عنيف .. ! والمأساة فى حياته أن يدرك .. يدرك مأساته .. يدرك انه مطحون بين قهر داخلى وقهر خارجى .. وانه يبصر طريق السلامة ولا يطيق السير فيه ، وتتراكم الجراح بتراكم المعارك ، ويألف قدره .. تنشأ صداقة بينه وبين أسلوب حياته.. يألف ما ليس مألوفا فى حياته يستريح للتعب والنصب .. لايفرح كثيرا للنصر ولا يجزع كثيرا للهزيمة .. فهما فى حياته متقاربان ومتعاقبان كالموج على الشاطىء ! وربما كان هذا الادراك والتقبل معنى شجاعته الوحيد :

ـ هذا شاى رائع !

قالها محمد الجندى وهو يعيد القدح الى مكانه على المنضدة وخطر ببال أحمد للحظة سؤال : أيمكن أن تكون هى التى أعدت هذا الشاى ؟

واستشعر سخافة السؤال .. فهى لم تفارق مقعدها فى الشرفة التى تطل على مجلسهم فى الحديقة منذ ساعة ! ألا يجوز أن يكون هذا وهما آخر ؟ ما ليس وهما انها أطلت وقت الغروب من الشرفة ، وانه رآها .. رأى الشمس الغاربة تلف قوامها الرائع فى غلالة من الضوء .. كانت تلك حقيقة لم يجرؤ على التحديق فيها طويلا ، وحين رفع رأسه مرة أخرى لم تكن هناك ، وأغلب الظن انها هى التى عادت ومعها مقعد مريح تمددت فيه .. ولاتزال متمددة فى غبش المساء .. وكان شعوره بأنها هناك تسمع أو لاتسمع أحاديثهم يملؤه بالنشوة ...

وفى اللحظات التى كان محمد الجندى يتحدث فيها عن مغامراته الجنسية فى كل بلد حل فيه أو مر به كان يود أن يتوسل اليه بأن يخفض من صوته ، ولكن صمت شريف نفسه ، بل وتعليقاته على هذا النوع من الحديث بصوت لا تحرج فيه كانت تخرسه .

قال شريف ناسفا آخر أوهامه :

ـ « رجب » يجيد صنع الشاى .. يجيد كل ما ليس مطلوبا منه ..

ضحك رجب الذى كان يجلس تحت أقدامهم على النجيل الاخضر ، والذى استمع مبهورا الى أجزاء متفرقة من رحلة سندباد الزهايرة وقال :

ـ ماذا أفعل اذا كنتم لا تكلفونى الا بأعمال الصفار ؟

ثم أضاف موجها حديثه الى محمد الجندى فى نبرة استنكار :

ـ « رجب الصعيدى » يختص بعلف المواشى وحدها ؟ أهذا يصح ؟ لماذا لا تقول لهم بعض ما تعرف عنى ؟

سأله محمد الجندى بتودد :

ـ ما الذى تريد أن تفعله يارجب ؟

رغم غبش المساء لمعت فى وجه رجب المستطيل الشاحب النحيل نظرة متألقة :

ـ أريد أن تأخذنى معك .. أنا أعرف انك تحارب الانجليز فى القنال .. وأريد أن ..

ضجوا جميعا بالضحك .. تضايق رجب .. قاطع ضحكاتهم قائلا :

ـ أنتم لا تعرفون رجب .. لو ...

قاطعه شريف بنبرة عتاب :

ـ أنا لا أعرفك ؟ كيف تقول عنى ذلك يارجب وانت تعرف ..

قال رجب منتهزا الفرصة :

ـ قلبك أبيض كاللبن يا أستاذ شريف ولكن أهل الزهايرة قلبهم اسود كالطين ، انهم يعرفون جميعا ما الذى يقدر عليه رجب ولكنهم لايريدون رجالا .. انهم يريدون بغالا تجر وتحرث وتعزق ومنذ ضاعت قوتى وهم ..

قال شريف مشاكسا :

ـ وكيف تريد أن تحارب اذن يا رجب ؟

ـ الحرب لا تحتاج الى بغال بل الى رجال ، ورجب الصعيدى .. رجل لايعرف الخوف ما دام فى يده بندقية ..

ثم تساءل مرة أخرى موجها حديثه الى محمد الجندى :

ـ هل تحاربون الانجليز بالذراع أم بالبنادق ؟

قال محمد الجندى ضاحكا :

ـ بالاثنين يا رجب !

ـ يا أستاذ محمد .. كنت أعمل عندكم ، وانت تعرف ما أقدر عليه ، ولو أخذتنى معك ..

ـ من قال لك اننى أحارب الانجليز ؟

قال رجب بلهجة العالم بالخفايا :

ـ رجب لا يخفى عليه شىء فى هذا البلد ولو أردت أن أحكى لك..

تدخل شريف محاولا انقاذ الموقف :

ـ سوف نستمع اليك لكن بعد أن تحضر لنا علبة سجائر..

واكمل وهو يتابع شبح رجب القصير الناحل يختفى بين أشجار الحديقة ..

ـ رجب هذا يمكن أن يقوم بمعجزة لمن يؤمن به .. لمن يعطيه الثقة والحب .. انه سندباد من نوع آخر ..

قالها ممازحا ثم تابع ، وكأنما ليخفف من حدة المقارنة :

ـ لا يحب أحدا فى الزهايرة مثل محمد الجندى ..

قال أحمد منتهزا الفرصة التى أتاحها رجب :

ـ فى الحقيقة كنت أود أن أسأل الأخ محمد ـ ما لم يكن فى هذا ما يسبب له حرجا ـ عن مسألة اشتراكه مع قوات المقاومة ، عن دور العناصر الشعبية فى هذا العمل ، فقد كنت أظن ..

قال محمد الجندى ضاحكا :

ـ اذا كنتم تريدون الهروب من القصة الكاملة فأنتم بهذه الطريقة تتورطون فى قصة أخرى أطول دون أن تشعروا ..

قال شريف بتهريج :

ـ المسألة باختصار تتوقف عليك ، يمكن أن تروى كل شىء بايجاز ولكن من منا يجرؤ على أن يواجهك بهذه الحقيقة ..

قال أحمد :

ـ سنكون سعداء بالاستماع اليك طول الليل .

ـ بالنسبة لسؤالك فالخطب يسير ، ففى سنة ١٩٤٨ ، سافرت

الى فلسطين مع أول قوة ذهبت الى هناك من الاخوان المسلمين ، وفى هذه المرة وبعد تدخل الجيوش العربيـة تعرفت على بعض الضباط الذين أصبحوا فيما بعد من الضباط الاحرار ، كانت تلك هى البداية ، ثم حين ألفت حكومة الوفد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وتجددت حركة المقاومة الشعبية ضد الانجليز فى منطقة القنـال اشتركت فيها مع بعض متطوعى « مصر الفتـاة » . كنت قـد تشاجرت مع بعض الاخوان ، لم يرق لى تزمتهم ، لـكن تلك حكاية ليس هذا وقتها ، كانت هذه الحركة قد قامت بتأييد من حكومة الوفد وضمت عناصر وطنية من جميع الفئات والاحزاب ، وفوجئت بأن بعض الضباط الذين عرفتهم فى فلسطين هم الذين ينقلون لنـا سرا كميات من أسلحة الجيش وذخائره ، وهكذا تجددت العلاقة وتأكدت .. الى الحد الذى دفعهم الى الاتصـال بى حين بدأت حركة المقاومة الاخيرة ، قبل وبعد توقيع اتفاقية الجلاء بالاحرف الاولى .. هذه هى القصة باختصار !

قال شريف ضاحكا :

ـ شىء عظيم ، الثورة تلغى الاحزاب ، ولـكن الاحزاب تشترك فى الحكم من خلال محمد الجندى .

قال محمد الجندى مصححا :

ـ تقصد تشترك فى الـكفاح لا فى الحكم !

صمت شريف صمت الظافر ، وكأنه كان يريد أن يستخلص من محمد الجندى هذا الاعتراف ليسمعه أحمد ، ليعرف دور الوفد فى الـكفاح ..

قال أحمـد :

ـ حزب الوفد هو الذى اختار لنفسه برفضه قانون الاصـلاح الزراعى !

قال محمد الجندى بنبرة من لا يروق له الـكلام فى هذه الامور ولـكنه يحب أن يقول الحق :

ـ لا أدعى انى افهم فى السياسة ، ولـكن المسألة ببساطة اما أن تحكم الثورة أو لا تحكم ، ولو قبـل الوفد كل ما نادوا به فلم يكونوا ليفقدوا عذرا للانفراد بالسلطة ، تلك هى الحقيقة مع

انى احبهم واحارب فى صفوفهم لأنهم مثلى خارجون على القانون.

« فجأة برزت نجوى من قلب الظلام » خفق قلب أحمد بشدة ، هى التى كانت جالسة اذن طوال الوقت ، تسمع أو لا تسمع ، واختفى الجسد المسترخى فجأة كما ظهر فجأة ، كان ذلك حين انسحب ضوء مصباح السيارة التى كانت تدور مع الطريق لتعبر الـكوبرى المؤدى الى مدخل القرية ...

قال شريف وهو يتابع بعينيه السيارة التى هدأت من سرعتها أمام البوابة البحرية للسراى :

ـ يبدو أن بابا قد عاد قبل موعده ..

ثم أضاف وكأنه يعتذر عن شىء ينبغى أن يدركه صديقاه :

ـ اذا لم يكن معه بعض الضيف فلا بد أن هناك ما أدى الى عودته قبل موعده .

وقف أحمد ومحمد الجندى فى وقت واحد وكأنما أدركا شيئا واحدا عناه شريف بكلامه :

ـ اذهب أنت لمقابلة بابا ، وسوف نلتقى فى ليلة قادمة ..

تقدمهما « شريف » الى باب خلفى للحديقة وودعهما قبل أن يعود ليستقبل والده أمام البوابة البحرية التى دخل منها أحمـد ذات يوم ...

سارا يتلمسان طريقهما فى شوارع القرية المظلمة دون رغبة فى الـكلام ، كانت الطريقة التى انتهت بها السهرة ، قبل أن ينتهى الحديث قد قاربت بينهما وباعدت فى نفس الوقت ، وفجأة قال محمد الجندى متخلصا من الحرج ومعبرا عنه معا :

ـ أريد أن أراك ..

ثم أضاف : أراك وحدك مع ان شريف هو الذى شاقنى الى معرفتك ، فمتى تحب أن نلتقى ؟

ـ فى أى وقت يروق لك !

ـ ربما أسافر لأيام قليلة وحين أعود سأتصل بك !

- ١٤ -

ذات اصيل ارتفع رأس صبى من أطفال قرية الزهايرة من على حافة السور الذى يحيط بجرن عباس بك المواردى ، لكن الصبى الصغير لم يلبث بعد أن أطل برأسه ورأى ما يجرى فى جرن الوسية أن صعد بجسمه كله فوق السور ليأخذ وضعا يناسب شخصا قرر الاقامة فوق السور لا مجرد التطلع أو القفز ...

ولم يكد الصبى يجلس مدليا رجليه داخل السور ناحية الجرن حتى ارتفع رأس آخر بجوار الصبى كان يلعب معه منذ لحظات ثم تلفت فلم يجده ، ثم تتابعت الرءوس ..

نبتت للسور المحدب رءوس بشرية.. رءوس أولاد وبنات صغار، وتدلت جميع الأرجل ناحية الجرن . كانت البداية لهذا كله صوت صفارة متقطعة سمعها الصبى الاول ، سمعها فدق قلبه بعنف ، ذلك أن قرية الزهايرة مثل كل القرى لا تعرف الا صوت صفارة الخفير ، تعرفه مقترنا بمعنى الخطر ، وبأصوات استغاثة ، وبوقع أقدام مندفعة حين يشتعل حريق فى أحد البيوت ، أو ينشب عراك بين الرجال أو تسقط احدى المواشى فى بئر الساقية ، ولكن ذلك الصوت فى هذه المرة كان يتكرر بايقاع مختلف ، لا يحدق به خوف أو هلع وفى مكان واحد لا يتغير هو جرن عباس بك ..

ورغم ذلك فقد اقتلع صوت الصفارة الصبى من لعبته ، زرعه فوق السور ليشاهد لعبة أخرى لم يرها من قبل ، لماذا يصفر ذلك التلميذ الذى لا يلعب بالكرة مثل بقية اللاعبين ؟

وما هى هذه اللعبة ؟ وكيف تكون ؟

وكان لابد أن تمضى عدة أيام قبل أن يجد الصبى أجوبة على أسئلته ، وقبل أن يتولى هو تقديم الاجوبة للصبية الآخرين الذين لم يسمعوا صوت الصفارة ، ولكنهم سمعوا القصة التى انتشرت

فى القرية كحريق . وكان لابد أن تمضى أيام أخرى قبل أن يتنبه « رجب الصعيدى » الذى تعددت اختصاصاته فى سراى عباس بك الى خطورة أن يتفرج الاولاد وهم جلوس على السور — والخطورة على السور لا على الاولاد — فراح يهددهم ويتوعدهم ، ولكن شريف قال له :

— دعهم يدخلون ويجلسون على حافة الملعب داخل الجرن .

وهكذا بدءوا يصنعون بأجسادهم سورا آخر .. بلون الجلاليب والطواقى ... يرتفع فوق أكوام السباخ المحدقة بالملعب وينخفض حيث تنخفض ، ويتبعثر حيث توجد حزم القش ، ثم يواصل امتداده فوق الاسطح القريبة من الجرن حيث تجلس النسوة والبنات متشحات بالطرح السوداء وسط أكداس القش والدريس والحطب .. ويواصل النمو كأنه عشب ينبت فى أرض جرداء لايملكها أحد ! وكان لابد أن تمضى عدة أيام أخرى حتى يجتذب السور الى جوار الاولاد الصغار رجالا من مختلف الاعمار يتفرجون ويسألون ... ويحاولون بدورهم أن يكتشفوا أسرار هذه اللعبة ، ويفكوا مفاليقها ، وأن يشتركوا فيها بالكلام أولا .. ثم يفاجأوا بأنهم قد أصبحوا جزءا من اللعبة وان اللعبة توشك أن تصبح دون أن يشعروا جزءا منهم .. جزءا من حياتهم ...

- ١٥ -

فى ليالى الصيف المقمرة يتمشى تلاميذ الزهايرة أفواجا فى الطريق الزراعى الممتد بجوار ترعة البوهية حتى الهدار ، وهناك يجلسون على سور الكوبرى الحجرى يثرثرون ، ويتأملون المياه وهى تصنع دوامات هائلة خلف الكوبرى الذى يحتجز وراءه المياه قبل أن تتوزع فى مختلف الفروع المائية ..

وفى تلك الليلة كان « صبرى » ـ الذى بدأت علاقته بشريف تتأكد فى ملعب الكرة قد جاء ليشارك فى نزهة الليلة بعد أن أكد له « أحمد » ان « محمد الجندى » الذى عاد من سفره منذ أيام سوف ينضم اليهم ليروى جزءا جديدا من القصة الكاملة التى يبدو انها لن تنتهى قبل نهاية الاجازة ...

وكانت حياة محمد الجندى المثيرة قد أصبح لها فى الليالى المقمرة ، وفى الجلسات الخاصة التى يشترك فيها « شريف » و « أحمد » حينا وينفرد بها أحمد حينا آخر ، ذلك السحر الذى أصبحت تجده الزهايرة فى مشاهدة كرة القدم فى النهار! قال شريف معلقا على مباراة اليوم :

ـ من كان يتصور أن يكون للعبة الكرة هذه الشعبية فى الزهايرة ؟

قال أحمد وهو ينفخ التراب عن المكان الذى يهم بالجلوس عليه فوق حافة الهدار :

ـ المصيبة ان الكبار أصبحوا يسبقون الصغار فى التفرج على الكرة !

تساءل محمد الجندى :

ـ لم تعتبر الأمر مصيبة ؟

ـ هم الذين كانوا يعتبرونه كذلك .

قال شريف ضاحكا ومغايظا لأحمد :

ـ مرة قلت لك ان الفلاحين بلهاء فلم يرق لك كلامى !

لم يجد أحمد بنفسه رغبة للاحاة شريف فى هذا الموضوع ، أراد أن يعود بالحديث الى القصة الكاملة ، ولكن صبرى فاجأهم بهذا السؤال :

ـ أى سر فى هذه اللعبة ؟ سحرها لا يخيب فى أى بلد ؟ ومع أى ناس ؟ فى القاهرة كما فى الزهايرة ، كما فى كل بلاد العالم ؟

قال أحمد :

ـ من الذى قال مرة ان الكرة هى المسرح ؟

قال شريف فى اعتداد مرح :

ـ طبعا لا أحد غيرى يبدى مثل هذه الملاحظات الرائعة ..

قال أحمد وقد أثار وجود صبرى والجندى فيه روح التحدى لكن دون أن يفقد روح المرح :

ـ يمكنك أحيانا أن تردد بعض الكلمات دون أن تدرك معناها.. وآنذاك يمكننى أن أشرح لك ..

ثم تابع وقد نجح فى أن يجذب اليه الانتباه :

ـ ليست الكرة هى المسرح بل هى الحياة ذاتها ، الحياة مركزة ومقطرة .. التنافس مركز والتعاون كذلك .. والاثنان معا فى لعبة واحدة عبقرية الفرد فى المحاورة ، وعبقرية الجماعة فى تبادل الكرة .. التنافس والتعاون فى وقت واحد معا لأول مرة ، وفى مكان تراه العين الواحدة ...

ضحك شريف محاولا أن يكسب بالتهريج ما قد يخسره بالجد :

ـ الحمد لله لأننا لم نعتمد عليك فى وصف كرة القدم لاهالى الزهايرة !

قال أحمد بنبرة لم يخف مفزاها على أحد :

ـ أعرف ماذا ينبغى أن أقوله لك ، وماذا ينبغى أن أقوله للزهايرة !

تدخل صبرى محاولا أن يعيد الأمور لجوها الطبيعى :

ـ أحمد يسقط أفكاره على أى شىء ، يهمه أن يقوم بعقد زواج ـ ولو عرفى ـ بين متناقضات الحياة ، ولم يسعفه فى تحقيق هذه الأمنية سوى الكرة ..

قال شريف وقد فطن لمحاولة صبرى ، مصمما على مواصلة السخرية بأحمد :

– ألا يتحقق هذا الزواج بشكل شرعى فى الحروب .

تدخل محمد الجندى فى محاولة أخيرة لوقف المباراة .. أو على الاقل تحويل اتجاهها :

– الحرب ؟ يتحدث عنها دائما من لا يعرفها ، ومن يعرفها يكره حتى مجرد الحديث عنها !

ثم أضاف :

– الكرة حرب نظيفة يتفرج عليها الناس وهم آمنون !

قال شريف محتفظا بنبرة السخرية :

– كما يتفرجون على الأسد فى حديقة الحيوان وهم مطمئنون ، وهكذا يشبعون حاجتهم الى رؤية الخطر والامن متجاورين ، وهم فى الواقع لايرون سوى الامن والامن ، ولكنها خدعة ظريفة كخدعة الكرة ..

قال صبرى مصمما على انهاء هذه المباراة :

– اللعنة على الكرة .. لقد جئت الليلة لأسمع جزءا من القصة الكاملة .. هل تريدون ألا أعود اليكم .. ؟

وابتسم محمد الجندى فى سعادة طفل حقيقى وبدأ يروى جزءا من القصة !

– ١٦ –

وكان لابد أن تمضى أيام أخرى حتى يرى أهالى قرية الزهايرة الوجه الوحيد الذى يمكنهم أن يروه لنبوغ شريف .. فمهارة شريف كمهاجم ومدافع ، مرونته فى المحاورة وقوته فى التسديد ، وقدرته على التعامل مع الكرة بكل جزء من أجزاء جسمه ، ومهما يكن وضع الكرة بالنسبة له ، وبراعته فى الخداع بجسمه ، هذه المهارات كلها ما كانت لتظهر على حقيقتها الا بعد وقت ، بعد أن تظهر المواهب المحلية فى الزهايرة وتنضج قليلا ، وتحمل شريف على اظهار كافة مواهبه .. !

لم يكن ذلك هو شريف الذى حاول عبثا أن ينفذ الى عقول الناس فى الجامع ، والذى يقول كلاما لا يفهمه أحد ، انه هنا يتكلم لغة يفهمها كل الناس تنفذ الى عقولهم كالصورة وتهزهم كالاغنية !

وأدرك شريف ان الطريق المسدود قد فتح .. ودون أن ينظر الى عيون الناس ... كان يصل اليه رد الفعل لأقل حركة يقوم بها ، انه يمسك بأيديهم وحناجرهم بخيوط خفية مشدودة الى قدميه يحركها متى يشاء ، واندفع بجنون يعبث بهذا الحشد الذى عبث به ذات نهار عصيب !

وبرزت مواهب « صبرى » الكروية التى كان لا يعيرها أقل اهتمام .. انه يهتم بها هذه المرة لينافس شريف فيما لايقدر أحد على منافسته فيه .. ولكن المسافة بينهما تبقى شاسعة .. واختفى أحمد فى الملعب أو كاد ، ولم تضايقه هذه المسألة .. ضايقت الكثيرين من محبيه من أهالى القرية .. ولم يكن يعرف انهم بمثل هذا العدد .. كانوا يعتقدون انه لو اجتهد قليلا فى اللعب كما يجتهد فى الدراسة فسوف يغلبهم جميعا .. ولكنه لا يفعل ..

ما لم يخطر ببال أحد أن أجيرا مثل « عطية » يصبح لاعبا لا يقل خطورة عن « صبرى » وقد يتفوق عليه ، وقد يصبح منافسا لشريف ، جاء ليساعد « رجب » فى تنظيف الملعب ورسمه ثم وقف يتفرج ويعيد لهم الكرات البعيدة ، ثم اشترك فى اللعب مكان تلميذ مصاب ، ومن يومها وهو يحتال كلما واتته فرصة فراغ ليشارك فى الملعب ، قال له رجب محذرا :

– لو علم الشيخ عرفة انك تجىء الى هنا وتلعب فلن تغرب عليك الشمس فى داره .

قال « عطية » الذى بدأ سم الكرة يسرى فى دمه أيضا :

– أعمل عند غيره .

قال رجب :

– ولن تغرب عليك فى دار غيره ، وسترى .

– أعمل باليومية .. ورزقى على الله .

– تكون قد فلحت يا ابن جمالات ، وسمعت كلامى .

كان لابد أن يمضى وقت حتى يتكشف لهم عالم الكرة عن غرائبه ، ذلك عالم جديد تحكمه معايير جديدة ، الشيخ « عرفة » الذى يصله الخبر المشئوم عن « عطية » يذهب الى الجرن وفى نيته أن يجعل منه عبرة لمن يعتبر.. ولكنه يجد بعض الرجال الكبار هناك جالسين فيجلس بينهم ، ولا يصدق عينيه وهو يرى «عطية» يتلاعب بالكرة وبعواطف الناس فى نفس الوقت . وحتى لو طرده وهذا ما قرره بينه وبين نفسه .. فسوف يأتى هو الى هنا ليتفرج عليه وعلى تلك اللعبة ، ذلك عالم جديد تحكمه معايير جديدة .. تسمح لشريف وصبرى وعطية أن يكونوا ثالوثا خطيرا متفاهما ومنسجما .. أصدقاء حقيقيين داخل الملعب وخارجه ، ولكنهم أصدقاء كرة فلم يكن أحد منهم ينسى المسافات الفاصلة حين لاتكون هناك كرة ولكنها يجب أن تبقى دائما تلك الكرة المستديرة .. تلك الدائرة الملأى بالهواء التى تلتهم فى جوفها كل الدوائر الاخرى ، يجب أن تبقى تلك الدائرة لتعمل عملها فى حياة الزهايرة التى كانت تستعصى على أى تغيير ، لتجعل من محمد الجندى الوحش الفامض اضحوكة أمام الصغار والكبار .. حين ينزل الى الملعب ، متجردا من ثيابه ، كاشفا عن أوراكه الضخمة وكرشه الكبير ، وعضلات

ذراعيه اللذين اكتشف انهما لا يفيدانه فى قليل أو كثير داخل الملعب .. انه يجرى ويلهث ولأول مرة يسقط على الارض أمام الجميع لأن « عطية » الذى يبدو الى جواره كالنملة بجوار الصرصور قد خدعه واستخلص منه الكرة ! قبل هذا اليوم كان اللاعبون يخشون من مجرد الاقتراب منه ، كان يصيح ويهوش بيديه ، يجرى ووراءه وأمامه تجرى أسطورته .. لم يكن احد يجرؤ على الاقتراب منه حتى فعلها عطية ، فسقط وسقطت الأسطورة ، ولكنها سقطت داخل الملعب ، فخارج الملعب كانت الدنيا القديمة يحكم قبضتها على كل شىء !

وكان لابد أن تمضى أيام ليشعر الناس أن الكرة يجب أن تبقى .. ليتفقوا جميعا على هذا المطلب ويختلفوا بعد ذلك فى الأسباب ...

- ١٧ -

الطريق الى الهدار ذهابا وعودة أصبح ملتقى الاصدقاء كل ليلة من أعضاء الفريق الكروى ، لم تعد النزهة مقصورة على الليالى القمرية ، فى تلك الليلة كانت السماء صافية ، والنجوم وحدها ترسل ضوءا واهنا تختفى فيه ظلال الاشجار والناس ، وتحتاج فيه الى تمييز الاصدقاء بأصواتهم ، وكان ما يشغل الاصدقاء فى تلك الليلة هو البحث عن اسم للفريق الذى أصبح حقيقة واقعة!

قال صبرى :

ـ « فريق الأسد المرعب » ، ما رأيكم ؟

قالها بنبرة من يمثل الجد !

قال محمد الجندى ضاحكا :

ـ كل الفرق الخائبة تنتحل هذا الاسم !

قال شريف وهو يفترش قطعة من النجيل على حافة الجسر :

ـ هذا أدعى لأن نحتفظ بالاسم .

قال أحمد وهو يقذف بطوبة فى ترعة البوهية :

ـ لا أظن ان خيبة فريقكم وصلت الى هذا الحد .

قال محمد الجندى :

ـ سوف تصل باذن الله مادام « رجب الصعيدى » يصر على أن ينضم الى الفريق ..

وتتابعت التعليقات :

ـ ولماذا لا ينضم رجب ؟ أليس من الجائز أن يكون موهبة مجهولة مثل « عطية » ؟

ـ عطية موهبة حقيقية ، أما رجب .. فأراهن انه سيموت لو لعب مباراة واحدة !

تدخل شريف :

ـ رجب يموت فعلا منذ رأى الزهايرة تصفق لعطية .. يريد أن يصبح نجما بأى ثمن .. لا أحد فى الزهايرة يفهم مايدور فى رأس هذا الولد !

قال صبرى :

ـ أنتم لا تدرون ماذا تفعلون بالزهايرة ، كل الاولاد يريدون أن يصبحوا نجوما ، ولن تجدوا بعد اليوم من يزرع أو يقلع !

قال أحمد :

ـ كنت أظن الزهايرة جائعة الى الخبز وحده ، ولكن ها هى الايام تثبت انه حتى الجوعى يحلمون بالمجد !

ـ للمجد فى هذه الايام طريقان .. أن تنضم الى الفدائيين مع محمد الجندى أو الى فريق الأسد المرعب .

وضجوا جميعا بالضحك !

قال محمد الجندى بنبرة جادة :

ـ هل تصدقون ؟ رأيت مرة فى خيالى فريقكم ..

ثم أضاف وقد عجز عن الاستمرار فى نبرة الجد .. « فريق الأسد المرعب » هناك فى القنال .. لم لا يتحقق هذا الحلم ؟

قال أحمد :

ـ من عجب انك أنت الذى تسأل مع انك الذى تعرف الجواب؟

ثم أضاف :

ـ تمنيت لو فتحوا باب التطوع ، على الأقل يعرف المرء حقيقة موقفه ! أحيانا أشك فى قدرتى على قتل انسان حتى ولو كان جنديا انجليزيا يحتل بلادى !

قال صبرى :

ـ لهذا السبب تريدهم أن يفتحوا باب التطوع ؟ لماذا لا تتطوع فى هيئة التحرير ؟

قال شريف ضاحكا :

ـ هيئة التحرير مثل « فريق الأسد المرعب » ترحب بمن يلعب وبمن لا يلعب .

صرخ أحمد :

ـ يا عجبا ألا تعرفون الجد قليلا ؟

قال شريف وقد استفزته صرخة أحمد وثارت فيه روح العراك:

– نعرفه .. وأعرف موقفى فى مثل هذه الأمور ولدى الشجاعة لقوله .. لن أحارب فى صفوفهم !

– لماذا ؟

قالها أحمد وقد شعر بأن المواجهة سوف تتجدد :

– لا أسلم نفسى لمن يسلبنى حريتى ، ولو أعطانى كل شىء ! هذه هى المسألة !

تدخل صبرى هذه المرة :

– لن أقاتل فى صفوفهم مثلك لأسباب غير أسبابك .

قال شريف مندهشا :

– أرحب بموقفك ومتنازل عن شرح الأسباب !

عاد صبرى يقول :

– ولكنى مصر على شرحها ..

ساد الصمت لحظات ، بعدها تابع صبرى حديثه ، وقد أصر هذه المرة على خوض معركته مع شريف :

– لا أفهم معنى أن تتصور الحرية فى جانب ، وكل شىء فى جانب آخر ؟ هذا مجرد كلام ، فالذى يملك كل شىء هو الذى يملك الحرية .. أما الذى لا يملك شيئا فماذا تعنى بكونه حرا ؟ الحرية ليست مجرد كلمة .. الحرية قدرة .. وأنت حر بمدى ما تملك من قدرة !

قال شريف بهدوء متعمد :

– حين أبدأ ومعى الحرية ، ولو لم أكن مالكا لأى شىء سأصل مهما طال الوقت الى شىء أو أشياء .. لكن حين أفقد حريتى ، ومعى كل شىء فسأصل حتما الى فقدان كل شىء ، تلك هى تجربة الأمم ..

تدخل أحمد مصرا على تحديد الأمور :

– اتفقوا أولا على معنى الحرية !

قال شريف بنبرة اعتداد :

– اتفق العالم المتمدن على معنى الحرية منذ مئات السنين ..

قال صبرى مسايرا شريف فى هدوئه وحده :

– احب أن أتذكر ان هناك عالما جديدا فقيرا قد اكتشف معنى آخر للحرية .. فالحرية هى العدالة !

– العدالة ..؟ أنت تبدو مثل قريبك تعشق الالفاظ الغامضة.. ومع ثقتى بأن هذه الكلمة لا تشير الى شىء محدد واضح يعرفه الناس ، فالمشكلة فى رأيى لا تكون فى غموض الكلمة بل فيما يريده الناس حقا ، وفيما يكافحون من أجله !

هل يكافح الناس خلال حياتهم من أجل العدالة أم يكافحون من اجل الفوز والتفوق والرفاهية والمجد .. ؟ أما العدالة فقد يكافح من أجلها أولئك الذين خسروا السباق وحدهم ، انها تشبه لحظة البدء فى المباراة ، توجد ليتجاوزها اللاعبون ثم يطالب بها الخاسر ليبدأ السباق من جديد !

قال صبرى مصمما أن يخوض المعركة حتى النهاية :

– حين تجد ان الاغلبية فى بلدك أو فى اى بلد آخر هى التى تخسر المباراة دائما ، ألا يعنى هذا ان ثمة خطأ فى نظام اللعبة نفسها ؟ وأن يصبح هدفك ليس مجرد البحث عن بداية جديدة لنفس المباراة ، بل البحث عن نظام جديد للعبة يفوز فيها من يبذل العرق والذكاء بحق !

– لماذا اذن لا تقاتل فى صفوفهم ؟ أليسوا يغيرون النظام ؟

– لا انهم لا يغيرون قواعد اللعب ، بل فيما يبدو سوف يكتفون بتغيير الفريق !

– وتحديد الملكية وماذا يعنى فى رايك !

– بطريقتهم لايعنى شيئا !

– ماذا تريد اذن ؟

– الغاء الملكية .. أن نبدأ جميعا من البداية ، من الصفر !

– ليلتك سوداء ! أنت شيوعى اذن ! وتتركنى أصاحبك !

وضجوا جميعا بالضحك .. عدا محمد الجندى لم يكن يروق له هذا النوع من المباريات ، كانوا فى رايه أولادا يستعرضون مهاراتهم فى الكلام ، هذه اللعبة التى يجيدها أبناء المدارس ، قال بمضض :

– كلامكم يصيبنى بمغص ، تتشاجرون على معنى الحرية التى

لم تحصلوا عليها بعد ، ولن تحصلوا عليها بهـذا الـكلام الذى لا تملـكون غيره !

من يدفع ثمن الحرية هو الذى يملك حق الحديث عنهـا .. أما أنتم فمجرد ببغاوات !

ولـكن الببغاوات ظلت تتكلم طويلا فى هذه الليلة ولم يصمتوا الا حين بدأ محمد الجندى يروى جزءا جديدا من القصة الكاملة !

- ١٨ -

وكان لابد أن تمضى أيام أخرى ليبدأ بعض الناس فى الاحساس بمدى الخطر الذى يتسرب الى قرية الزهايرة مع الـكرة !

حسنين النجار يفتقد ابنه رشاد فيرسل أخاه محمود ليبحث عنه هناك فى الملعب ثم يجلس فى انتظار الاثنين دون جدوى ! وأمام دكان الخلفاوى يتردد سؤال يسبق كل الاسئلة : هل هناك لعب اليوم ؟ وأصبح الملعب مكانا يتواعد الناس على اللقاء فيه ! كما أصبحت الـكرة وراء كل الاعمال المعطلة والمؤجلة ، وصرخ الشيخ عرفه مأذون القرية : الى متى سنسكت على هذا الحال المائل ؟ ولـكن صرخته تبددت فى الهواء ، وحين اهتم بعضهم بصرختـه قالوا له :

ـ ولـكنك تذهب الى هناك !

ـ ماذا أفعل كلما سألت عن رجل لى عنده مصلحة قالوا : « انه هناك يتفرج على الكرة ، فأذهب لأتفرج وأقضى مصالحى »

ويتحول الموقف كله الى نكتة حين يسمع من يقول له :

ـ لماذا تغضب اذن ؟ أصـبحت الـكرة مكانا لقضـاء المصالح « فيبصق الشيخ » ـ ولتعطيلها !

***

الحاج حبيب عجوز القرية وحكيمها القديم قبل أن يأخذ الحاج ابراهيم مكانه !

الحاج حبيب فى الخامسة والسبعين ولـكن قدميه تحملانه الى حيث يريد ولسانه حر طليق يتجول حيث يشـاء فى أى موضـوع يحب ! ومن مكان عينيه لايزال ينبعث شعاع واهن يبصر به مواقع قدميه ، ويبصر به معنى ما يقع فى حياة الزهايرة !

واذا كان الحاج ابراهيم يسافر هنا وهناك ، اذا كان يقرأ ويكتب

ويقابل الحكام فى المنصورة والقاهرة فالحاج حبيب لم يسافر لأبعد من السنبلاوين ، ولكن سفره الحقيقى كان فى أعماق القرية انه يعرف القصص القديمة للآباء والأجداد ، يعرف ما يصلح وما لايصلح للناس وللأرض وللبهائم على السواء ، انه يضع أذنه الواهنة على قلب القرية ، والخطوط الوحيدة التى يفك رموزها هى الخطوط الخضراء فى الارض المزروعة ، وآخر سفرة كبيرة قام بها كانت الى جرن عباس بك ليتفرج على الكرة .. ولم يكن ما يقلقه هو المصالح المعطلة ، ولا ان كل شىء فى القرية بدأ يلوى عنقه ناحية الملعب ، كان ما يقلقه وما أسر به الى الحاج ابراهيم كالوصية شعورا غامضا بالخوف .. كأن خللا أصاب دقات القلب الذى كان يدق بانتظام منذ بدأ ينصت اليه !

وترجم الحاج حبيب هذا الخوف بقوله :

ـ ياحاج ابراهيم أكبر عرس فى القرية يبقى ليلتين أو ثلاثا ، أعظم الموالد يبقى سبعة أيام ، وهذا أكبر وقت يمكن أن يستغنى الناس فيه عن عقولهم ! اما أن يبقى ذلك ثلاثة أشهر كاملة .. ؟ فما معنى هذا ؟ ثم ما معنى ان يخرس الناس طوال هذا الوقت عن هذا الذى يجرى ؟ صدقنى اننى لا أفهم كيف مر هذا الوقت دون أن تحدث المصيبة التى كان يجب أن تحدث ؟

ويتلطف الحاج ابراهيم قائلا :

ـ ياعم الحاج حبيب .. كلها أسابيع وتنتهى الاجازة ، ويذهب الاولاد الى مدارسهم ، لا تقلق بشأن هذه المسألة !

ولكن الحاج ابراهيم نفسه كان قلقا ، ويدعو الله أن تمر الايام الباقية على خير ، فلم يكن يخفى على عينيه البصيرتين ذلك التمزق الذى يصيب حياة الناس فى الزهايرة .. حيث يعجز الآباء لأول مرة عن السيطرة على أبنائهم حين يتعلق الامر بهذه الكرة الملعونة .. لا فرق بين تلميذ وفلاح.. فالجنون الذى يتولى شأنهم جميعا داخل الملعب وخارجه لا يفرق ، ولأول مرة تتلاشى الحدود بين الصغار والكبار .. بين من يملك أرضا ومن لايملك سوى عافيته ، ومنذ أصبح « عطية بن جمالات » حديث الناس فى الزهايرة ، منذ رأوه يلعب جنبا الى جنب مع شريف وصبرى ، ويتمشى معهم أحيانا

على البوهية .. ويلبس فانلة حمراء مع التلاميذ الذين يجيئون من القاهرة لزيارة شريف ويشاركون فى اللعب ولا يكاد يقل عنهم مهارة .. منذ ذلك الوقت وفى أعماق كل فلاح فى مثل سنه حلم بأن يجرب حظه فى الكرة فقد يصبح ليوم أو لأيام أعجوبة مثل عطية ابن جمالات ، ان أحدا لا يتحدث عن طرد الشيخ عرفه له .. ولكنهم يتحدثون عن احتمال أن يأخذه شريف ليخدمه فى القاهرة ويلعب معهم هناك ! كلام فارغ قطعا ولكنه يدير رءوس الاولاد فى الزهايرة ، دون أن يجد أحد فرصة لكلمة عاقلة .. ألم يصبح رجب شبه موظف فى سراى عباس بك .. وعمله لا يكاد يتجاوز تنظيف الملعب ، وسقى المواشى المربوطة فى السراى ومن يملك أن يتفاهم مع هذا الحشد المتعاظم حول الملعب كل يوم حيث يتحول الكبار الى أطفال ويتحول الصغار من خلال الكرة الى عمالقة ؟

ان التبجح والغرور والاحلام والتطاول ، واختفاء الحدود الفاصلة ، والعجز عن الامساك بالمشاعر والكلمات هى الثمار الفاسدة التى ترتفع كل يوم مع الكرة ، ثم لا تنخفض أبدا ، ثم ما هذه العواطف المهلكة التى بدأت تنمو حول اللاعبين ، وبدلا من أن يتباهى الاولاد كما كانوا طوال عمرهم بما ينجزون من عمل فى اليوم أو فى الساعة فى الحقول .. اصبحوا يتباهون بعدد المرات التى أحرز فيها فلان أو علان أهدافا فى الفريق الآخر ! لو ظل الأمر مقصورا على التلاميذ لما كانت هناك مشكلة ولكن المشكلة الحقيقية هى اختفاء الحدود ، وعجزهم عن اعادتها من جديد ..؟ فمتى تنتهى على خير تلك الايام ؟

- ١٩ -

لماذا يبدو كل واحد منهم وكأنه يعرف ما يريد ، ويسعى لتحقيقه ، فينجح أو يفشل .. كلهم جميعا ما عداه ؟ كان أحمد هو الذى يسأل نفسه فى تلك الليلة التى آثر فيها أن ينفرد بنفسه كأنما ليصفى معها حسابا قديما ! « شريف » قال له منذ ساعات قليلة : انه يفكر فى أن يكون يوم عيد الاضحى الذى سيحل بعد أيام يوما لاينسى فى تاريخ الزهايرة ، سيزوره فى هذا اليوم بعض أصدقائه من القاهرة وسيطعم بهم فريق الأسد المرعب ليصبح صالحا ليلعب مع فريق السنبلاوين مباراة لاتنساها الزهايرة !

فوجىء أحمد بالفكرة والخبر معا : لكنه لم يخف دهشته واعجابه .. بالتأكيد سيكون يوما مدهشا ، لكن أيمكن أن تكون تلك فكرة طارئة بسبب الضيوف أم انه دعاهم خصيصا لهذا الغرض . ولم يحب أن يسأل شريف عن ذلك ، شريف هو الذى أوضح كل شىء حين بدأ يكمل فكرته عن المباراة :

ـ ستكون مباراة حقيقية .. ملابس كاملة ، وحكم ، وقوائم خشبية للجول لا مجرد حجرين ، وتخطيط كامل لأرض اللعب ..!

وأكمل أحمد ضاحكا :

ـ ناقص أن تقول : وتذاكر !

ولكن شريف أكد :

ـ طبعا وتذاكر .

ـ هل جننت ؟

ـ لماذا ؟

ـ لن يدفع أحد مليما ثمنا لتذكرة ، هل نسيت ما جرى يوم الجامع ؟

ـ وهل هذا يوم ينسى ؟ لكن انت الذى تنسى ، اننا نأخذ

هذه المرة نقودا من الاولاد والشباب وليس من الناس الكبار ، واننا نطلبها فى يوم عيد وان الكرة أصبحت شيئا يحبه الناس واننا نلاعب السنبلاوين وبالنسبة للسادة الكبار سنحضر لهم بعض المقاعد و ...

ـ لقد كنت تفكر فى كل شىء اذن ؟

ـ طبعا .

ـ ودون أن تأخذ رأيى فى شىء ؟

ـ كنت أريد أن أتأكد من مجىء أصدقائى فى القاهرة أولا ..

ـ لكن لماذا الفلوس ؟

ـ نفتح النادى ياصديقى؟ أليس هذا ماكنا نريده فى البداية ؟ كل واحد يعرف ما يريد ما عداه .. كان قد نسى حكاية النادى ، كانت المباراة الوحيدة التى احتشد لها هى مباراته مع شريف كصديقين ، ولكن حتى هذه المباراة يوشك « صبرى » أن يكسبها منه ، كان شريف هو الذى قال له يوما بعد مناقشته مع صبرى عند الهدار :

ـ لو قدر لى يوما أن أقتل شخصا سيكون صبرى ابن عمك !

قال أحمد :

ـ لماذا ؟

ـ لأنه لن يرضى الا بقتلى ! قالها بنبرة يختلط فيها التقدير بالغيظ .

ضحك أحمد قائلا :

ـ هناك فارق بين ما يفكر فيه الانسان وما يفعله ! المسألة مجرد آراء !

ـ صبرى من النوع الذى يعمل ما يفكر فيه !

ـ لهذا الحد تثق بفكرتك عنه ؟

ـ كما أثق بفكرتى عنك !

ـ وما هى فكرتك عنى ؟

ـ رغبتك فى أن تعرف الحقيقة عن كل شىء لن تترك لك أى فرصة لفعل شىء ، ولهذا فلن أقتلك أو تقتلنى .. فحين تتوقف لتعرف الحقيقة عن شىء يكون الناس جميعا قد تجاوزوه وشغلوا بشىء آخر ... !

كل واحد يعرف ما يريد ما عداه ، صبرى وحده يوشك أن يصبح الند الحقيقى لشريف فى الكرة وفى غيرها ، رغم انه لا يفكر فيه ابدا كصديق !

قال صبرى لأحمد مرة :

— أرى ما يعجبك فيه وأقدره ولكن صدامى مع مثله قدر لا مفر منه ، ولهذا لا أسمح لنفسى بالتورط فى حبه .

كل واحد يعرف ما يريد ما عداه ! فهو يوشك أن يختفى فى الملعب ، وفى القرية التى تحولت كلها الى الملعب حيث يبزغ نجم واحد هو شريف ، وشريف الذى يسخر من فكرة العدالة عند الهدار هو وحده الذى يفتح قلبه وبيته « لرجب الصعيدى » بعد أن ضربته الزهايرة فى بيت الله ، ويعرف منه عن عالم القرية ما لايعرفه هو الذى يعيش بين أهلها ومعهم ويتاح لرجب أن يرى « نجوى » كل يوم وقد يكلمها بينما لايجرؤ هو على أن يقترب منها خطوة واحدة ! والقصائد التى كتبها عنها لا تجد مستمعا واحدا ، وحين فكر مرة أن يقرأها لشريف باعتبارها شعره فى حبيبته المجهولة تراجع ، تصور ان شريف سيعرف الحقيقة فمن غير نجوى يمكن أن توصف عيناها بهذه الكلمات :

« لا أدرى ياحبيبتى كيف لا تدب الحياة فى كل شىء تقع عليه عيناك الجميلتان ؟ لماذا يحمل قلبى وحده عبء هذا الشعور الذى كان من الضرورى أن يحمله الكون كله معه ؟ لماذا يخفق قلبى وحده ، ولا يخفق قلب الدنيا كلها وأنت تخطرين فوقها كملاك ! أم اننى ياحبيبتى أصبحت دون أن أدرى قلب هذا الكون ، وقلبى هو الذى يدق فيه » .

أى حقيقة يمكن أن يعرفها شريف من هذه الكلمات ؟ وأى خبل ينتابه ؟ وماذا لو عرف هو أو حتى عرفت هى ؟ ماذا سيخسر اذا كان لم يكسب شيئا واحدا حقيقيا حتى الآن ؟ حتى صداقته بشريف ترتفع وتهبط كالكرة .. !

محمد الجندى أيضا يعرف ما يريد ويفعله رغم قسوته ! « محمد الجندى » وحده هو الذى يقترب منه يوما بعد يوم ، جمعتهما خيبة مشتركة فى الملعب ، كلاهما يعانى من عزلة خاصة ،

قال له « محمد الجندى » : انت أول انسان أظهر رغبة حقيقية فى أن يفهمنى ، أشعر وأنا معك بنوع من الامن لا أشعر به بالنسبة لأى شخص آخر .

ضحك أحمد وقال :

— يدهشنى انك تخاف ويضحكنى أن تجد الأمن بجوارى !

ويقول محمد الجندى :

— ليس هناك ما يملؤك بالرعب أكثر من أن تجد نفسك سجين فكرة جاهزة يتلقفها الناس عنك لأن أحدا لايريد أن يتعب نفسه فى التفكير فيمن تكون ؟ انت تستطيع أن تقتل أكثر الوحوش ضراوة، ولكن أن تحمل الناس على أن يفكروا ، أن يتخلصوا من فكرة مريحة جاهزة هذا هو الصعب المخيف ياصديقى ..

ان القصة الكاملة هى كفاحه الدائم والمستميت ضد هذا النوع الغريب من الوحوش ! ولكن حتى القصة الكاملة ليست هى فى كل أجزائها القصة الحقيقية .. و « محمد الجندى » هو الذى كان يؤثره أحيانا بهذه الأجزاء من الحقيقة ، وحين قال له ما فكر فيه ذات لحظة من ان الصدق ترف يملكه الرجل الغنى والرجل الشجاع وانه كان يصدق كل كلمة يقولها قال له محمد الجندى فى مرارة :

— القدرة على الكذب من نعم الله على الانسان فالحقيقة أحيانا تكون مثل جيفة يجب أن تغطيها بأى شىء ، وكلما كان الغطاء محكما وجميلا وثقيلا كان ثوابك عند الله عظيما مثل ثواب من يبنى مقبرة لميت ! .

كل واحد يعرف ما يريد ما عداه ، وحين قال مرة لمحمد الجندى بعد أيام من المناقشة حول فكرة الحرية عند الهدار ... حين قال له بمرارة :

— لا أفهم كيف يعجز شخص فى ذكاء شريف عن رؤية المصادفة التى كان من الممكن أن تجعله فى مكان « رجب الصعيدى » ، وأن تجعل رجب فى مكانه ، وكيف يسمح له ذكاؤه ولا أقول ضميره ، بالسخرية من فكرة العدالة ؟

وقتها قال له محمد الجندى وهو يسرح بعينيه الى الأفق البعيد :

— لم أتعلم مثلكم ، ولا قدرة لى على المناقشة ، ولم أكمل كتابا قرأته ، ولكنى انسان وقعت له بعض الحوادث ودعنى أحكى لك بعضا منها مما لا أقدر على حكايته لغيرك .. كنت فى الرابعة عشرة من عمرى ، ولم أكن قد فشلت فشلى العظيم فى الدراسة بعد ، سنتها نجحت فى المدرسة الابتدائية ، وأراد أبى أن يشجعنى فأعطانى ورقة بعشرة جنيهات كاملة ، وقال :

— احتفظ بها فى حصالتك لأشترى لك دراجة جديدة حين أسافر بعد أيام الى المنصورة !

وفى الليلة السابقة على هذه المكافأة كان أبى قد أخذنى فى يده لنزور رجلا يزرع فى أرضنا وتربطنا به صلة قرابة .. اسمه الشيخ « بكرى » كان يوشك أن يموت ، وحوله أبناؤه وزوجته.. لم يكن قد ذهب الى طبيب ، فلم أر حوله زجاجة دواء ، ولم يكن هناك من يتحدث عن نوع مرضه أو طريقة علاجه ، كانوا جميعا يتحدثون عن فرحتهم بزيارة أبى لهم ، ويوشكون أن يلوموا المريض على عدم شفائه بعد هذه الزيارة ، ما بقى فى رأسى من تلك الليلة هو شحوب وجه الرجل ، وبروز عظام خديه ، كانت الحركة الوحيدة التى تصدر عنه هى الايماء برموشه الفائرة بين حين وآخر ، وحين هم أبى بالقيام ترك فى يد الرجل المريض جنيها لم تقو أصابعه على الامساك به فسقط بجواره وتحرك جميع من حوله لتوديع أبى حتى الباب ، وهم جميعا يدعون له ، لأبى ، بالسلامة وطول العمر ، فى الطريق لم أتبادل مع أبى كلمة واحدة ، كيف نمت الفكرة فى رأسى وكبرت وتأكدت وحدها ؟ كيف أحسست انه من الضرورى الا أخبر بها أحدا لكى تتحقق ؟ ثم كيف فعلتها ؟ كيف أخذت الجنيهات العشرة من حصالتى وعدت بها الى البيت الذى لم أزره سوى هذه المرة ؟ كيف طرقت الباب وتسللت من خلال دهشتهم وترحيبهم وذهولهم لأضع الورقة فى يد الرجل التى كانت لا تزال عاجزة عن الحركة ثم أغادر البيت كما دخلته ودون كلمة متعثرا فى خوفى وخجلى ؟ كيف فعلت هذا كله ؟ لا أعرف لم أكن أفكر فيما سوف يحدث حين يسألنى أبى عن الجنيهات العشرة بعد أن نسافر . كنت أفكر فى الرجل المريض وفى انهم الآن

يمكن أن يذهبوا به الى طبيب ، وانه قد لا يموت .. ! وفوجئت بعد لحظات بأحد أبنائه يطرق باب بيتنا ويسأل عن أبى ثم يعطيه الورقة ولسانه يغمغم بما فعلت وكأن ثمة خطأ فى الموضوع .. لحظتها تصورت أى شىء الا أن يأخذ أبى الورقة بعد قليل من التمنع ، وليلتها لم أنم ..

مازلت أذكر كلمات أبى التى لم أدرك معناها الا بعد وقت طويل : « لايمكننا أن نفعل مثل هذا .. أقاربناكثيرون .. وكلهم فقراء ويمرضون ويموتون .. ولا نستطيع أن نفعل هذا مع الجميع ... ولو فعلته مع أحدهم فقط فسوف يغضب الآخرون .. انهم لاينتظرون هذا ، لأنه غير ممكن .. ولهذا أعادوا النقود .. يجب أن تفهم لو فعلنا ذلك دائما لأصبحنا مثلهم ، هل يمكنك أنت أن تصبح مثل أولاد الشيخ بكرى ، هذا مستحيل .. هم يقدرون على العمل فى الغيط وقد اعتادوا هذه الحياة ، أما أنت فلا تقدر .. يجب أن تفهم هذا .. والا ضعت دون أن تنقذ غيرك .. احذر هذه المشاعر فأنت صغير .. واذا اعتاد الآخرون أن يأخذوا منك فسوف يجرونك معهم الى الهاوية حيث لاتمتد يد لأحد » ..

وقتها لم يكن من الممكن أن أفهم ما يعنيه أبى تماما .. ويبدو اننى ظللت طويلا لا أفهمه هو الذى قال لى ذلك بنفسه .. بعد سنوات قليلة وأنا أتأرجح بين النجاح والفشل وقبل أن أبدأ هروبى العظيم ... كان « رجب الصعيدى » هذا فى ذروة قوته وقبيل انكساره ،وكان قد جاء دوره ليزرع ويقلع فى أرضنا ، طوال عمر هذا الولد ، وهو يعشق أن يلفت اليه النظر ، وبالنسبة لمن فى مثل ظروفه كان لابد أن يدفع ثمنا غاليا لاشباع هذه الحاجة ، وطريقته الوحيدة أن يفعل ما يعجز الآخرون عن فعله ، يحمل على ظهره زكيبة من القمح ويصعد بها السلالم الى قادوس ماكينة الطحين بينما يحملها الآخرون على مرات فى مقاطف صغيرة ، يتراهن فى دكان الخلفاوى على التهام اقة كاملة من الحلوى ، يحصد وحده نصف فدان فى يوم واحد . وكان لابد أن تجىء النهاية بأسرع مما يتوقع أحد ! وجاءت بدايتها وهو يعمل فى حقلنا ، بدأ يعانى من أول مرض ... ويرقد ... ويطول رقاده وتتعدد مرات الرقاد !

وقرر الحاج شلبى الذى يشرف على زراعة أرضنا أن يستغنى منه .. ولم يعترض أبى

قلت له : كيف نرميه مريضا وقد خدمنا فى صحته !

قال أبى : انت لن تفهم أبدا .. لا تريد ان تفهم .. أتعرف كم رجلا مثل رجب زرعوا فى أرضنا وخرجوا لمثل هذا السبب أو لغيره ، عشرة .. عشرون لو أبقيتهم فى بيتى لكان من الضرورى أن أؤجرك انت واخوتك .. لتعملوا فى حقول الناس حتى أنفق على هؤلاء .

لكننى لم أبدأ فى فهم ما كان يعنيه أبى الا بعد الهروب العظيم .. حين بدأت أقوم فى المدينة بأعمال لا تفترق عما يقوم به رجب فى حقل أبى .. !

أخشى أن أقول لك انك أيضا ربما لا تفهمنى .. ليست المسألة اننى أسخر بدورى من فكرة العدالة فلا أحد مثلى يدرك ماتعنيه تلك الكلمة ، ولكن هل يمكن لمثلك .. أعنى لمن هو فى مثل ظروفك أن يفهمنى حين أقول له انه حتى هؤلاء الذين يستحقون العدالة ، لايريدونها دائما الا بقدر ما يريد الخاسر أن تبدأ المباراة من جديد طمعا فى أن يحقق هو الفوز لنفسه ! كيف نطق شريف بهذه الكلمة مع انه لم يعرف ما عرفت ؟ لماذا يعمل الناس ؟ لماذا يبذلون أقصى ما فى وسعهم أو أفضل ؟

الخوف ؟ نعم ! التفوق والامتياز ؟ جائز ، الحب ؟ ممكن ، تأكيد الذات والتعبير عنها ؟ مؤكد ، أما العدالة ؟ كيف أوضح لك؟ قد تكون المسألة ببساطة انك عرفت شيئا عن رغبة الانسان فى تحقيق العدالة ، ولكنك لم تعرف ما عرفته عن رغبته فى تدميرها .

قال أحمد وقد طال صبره وصمته :

ـ يخيل لى ان هناك سوء تفاهم .. جوهر العدالة ليس هو المساواة بين انسان وآخر بقدر ما هو تناسب بين العمل وقيمته من ناحية ... واحترام عميق لقيمة الانسان كانسان ! ولقيمة العمل كتعبير عن الانسان من ناحية أخرى .

عاد محمد الجندى يؤكد :

ـ اخشى اننى لا أستطيع أن أوضح لك .. ! ما هى قيمة

الانسان ، وما هى حقيقة دوافعه ؟ وكيف تقدر قيمة عمل كبير ننجزه أحيانا بأحط الدوافع !

ـ قد لا تكون العدالة دافعا ولكنها شرط ضرورى لكى تنمو الدوافع النبيلة !

ـ لن تفهمنى أو ربما كنت لا أعرف كيف أشرح لك ما أحس به ، الانسان سيىء ياصديقى ومحير ، الفقير والغنى ، وسنك وظروفك لا يسمحان لك بادراك ذلك ، وقد تدرك غدا لو طردك أبوك .. !

قال أحمد بفزع :

ـ لماذا تحارب اذن ؟ لماذا تعرض نفسك للموت ؟

ـ مرة سحرتنى كلمة « الدين » ، ومرات سحرتنى كلمات « الوطن » و « الحرية » و « الكرامة » .. وحين تخلصت من سحر الكلمات كنت قد وقعت فى سحر العادة .. فى سحر أقسى عادة .. عادة العنف التى تركبنى كشيطان .. شحنة لابد أن أتخلص منها فى شخص أو فى شىء فمن أفضل من أعداء الوطن؟

وقاطعه أحمد :

ـ انت تقسو فى الحكم على نفسك .. وعلى الناس ! وكأنك تنتقم من شىء ويستطرد محمد الجندى وكأنه لم يسمع شيئا :

ـ وكنت قد عرفت بعض الاشخاص الذين يطيب لى أن أشاركهم فى لعبة العنف ويطيب لهم أن يساعدونى على الحياة حين تتوقف تلك اللعبة ، هذه هى المسألة .. !

ـ وثورة الفلاحين التى كنت أظنك تمهد لها الطريق ! بعد أن فتحته ثورة الجيش .

ويضحك محمد الجندى قائلا :

ـ سوف أحارب فى صفوفهم أيضا حين يبدءون هم ثورتهم !

قال أحمد وقد عاودته روح الاستماع :

ـ ومتى تظنهم يبدءون ؟

ـ لا أعرف !

ـ ماذا يمنعهم ؟ وقد ذهب الملك ، ويوشك الانجليز والاقطاعيون أن يذهبوا ، والقيادة الآن ثورية وتمد يدها لهم ..

— لست أحب الكلام فى السياسة ، لانى لا أفهم فيها .. ولكننى أحب أن أتكلم عن الاشياء والاشخاص .. كل فلاح عرفته كان يعيش وحده كفرد خائف متوجس يكتم ذعره وهواجسه ولا يثق بأحد ، والغريب انهم يعملون معا ولكنهم أبدا لا يفكرون معا .. ولا يشعرون معا ، مع ان كل واحد منهم يشعر ويفكر بنفس الامور التى يفكر فيها غيره ولا يفصل بينهم غير الهواء وغير جدران عاجزة قميئة ! وماذا تكون الثورة أى ثورة الا ازالة الحواجز بين الناس لكى يصبحوا فكرا واحدا وشعورا واحدا من أجل هدف واحد !

كل واحد يعرف ما يريده سواء بالعقل أم بالغريزة ، صدقا أم كذبا ، خيرا أم شرا ، وهو أيضا يجب أن يعرف ذلك ، وألا يخجل مما يعرف .

يجب أن يكون للمرء طريق ولو كان خاطئا .. وفى تلك الليلة أحس انه يريد أن يلوذ بشىء أى شىء ، ولم يكن هناك غيرها ، فى كل مرة ذهب اليها كان يتمنى أن تكون الاخيرة ، لا تقوى ، ولكن شعورا بأنها ليست هى ما يريده تماما .. ! كان الليل قد أوغل ، والسكون فى البيت شاملا ، والظلام يتراقص حول سهراية فى صالة البيت يهزها نسيم وان رقيق ولكن قدميه كانتا تحفظان الطريق بأكثر مما تحفظه عيناه .. تسلل فى الطريق المألوف عبر الاكياس الفارغة والفئوس والاوانى القديمة دون أن يصطدم بها ، دفع باب المخزن بسرعة حتى لا يند عنه صوت ! تسمع أنفاسها فى هدوء .. نائمة فى نفس المكان فوق حشية من الاكياس القديمة رغم الظلام يبصر فى خديها وردتين تزدهران كلما ضمها الى صدره .. رغم اطباق الجفون يرى النظرة النائمة المشوقة .. تناديه بعمها أحمد بسبب صلة القرابة البعيدة التى تربطها بالاسرة لتغطى الحقيقة التى لايحبها الناس فى قريتهم، حقيقة انها خادمة، وحتى يكون الغطاء جيدا فانها لا تأخذ أجرا مقابل هذه الخدمة ، فأبوه يزوجها كما يزوج بناته ، ويجهز لها حاجات العرس ويرسل لها المواسم فى المناسبات ، فلتكن عروسه الليلة .. عروس يكتفى بعناقها ، يشم روائح الشباب فيها ، يلمس ثمارها الناضجة ..

مد يده ليوقظها برفق .. تقلبت ناحيته .. شمت رائحته .. شم رائحتها ... لا ... لا ، تقولها دائما فى كل مرة .. تقولها بنفس الصوت النائم ، بنفس النبرة المتراخية ، ويدها تقاوم يده ثم تستسلم لها !

لم تكن تلك هى المرة الاولى .. ولكنها كانت المرة الاولى التى حاول فيها أن يعرف ما يريد وألا يخجل منه .. والتى كان يريدها فيها بكل شراسة اخفاقه وعجزه .. !

- ٢٠ -

كان ذلك يوم العيد الكبير ...

وقبل أن يرتفع قرص الشمس كاملا عن سطح الارض ، كانت أبواب البيوت فى قرية « الزهايرة » تفتح فتحة صغيرة أو كبيرة ليخرج رجل أو رجلان ، خلفهما طفل أو أطفال .. ! من فتحة الباب يحمل هواء الصباح الندى دفقة أو دفقات من الدخان الذى يشى باشتعال النار منذ وقت مبكر فى الفرن أو الكانون .. تخرج دفقة الدخان مختلطة دائما بروائح اللحم المسلوق والخبز الخارج لتوه من الفرن ، ثياب الاولاد جديدة غالبا أو نظيفة فى هذا الصباح ! رءوسهم حليقة بطريقة واحدة كأنها صبت جميعها فى قالب واحد ، وغالبا ما يعرج الاطفال فى مشيتهم ، وقد يعرج الكبار كذلك ، ولأول مرة ينظرون الى مواطىء أقدامهم فأحذيتهم جديدة ، وأقدامهم التى ألفت الحفاء لم تألف الاحذية ، والقدم تعانى من الحذاء بقدر ما يعانى الحذاء من القدم !

ويلتقى الجميع فى مسجد القرية لصلاة العيد التى تبدأ حين ترتفع الشمس عن سطح الأرض قليلا !

***

حين تنتهى صلاة العيد تكون الشمس قد حاذت رءوس النخيل العالية ، وأعالى الاشجار السامقة البعيدة ، فيمضى المصلون جميعا فى طريق تمشى فيه القرية منذ مئات السنين ... طريق ضيق ومتعرج تحيط به الحقول المزروعة ، وينتهى حين تبدأ المقابر !

كل رجل يعرف طريقه بين المقابر ... يعرف المقبرة التى يريد ، يده فى يد ابنه كأنما يريده أن يعرف من البداية قصة النهاية .. يعلمه كيف يقرأ الفاتحة ويترحم على الموتى ، وكيف يتجنب أن يدوس بقدمه على المقابر .. ويحكى له جزءا من سيرة الغائب الذى لن يرجع .. !

وحين تنتهى زيارة الموتى تبدأ زيارة الاحياء .. !

وتعود القرية التى تجمعت أمام الله وأمام الموت لتتفرق فى بيوت الاحياء !

***

فى جرن عباس بك المواردى كان رجب الصعيدى يقف مثل قائد فرقة من الجنود ، وكانت فرقته تتألف من مجموعة من الصبيان عقد معهم صفقة على أن يتنازلوا عن ساعة أو ساعتين من صباح العيد ليعملوا معه فى اعداد الجرن للمباراة الكبرى .. فى مقابل أن يتفرجوا على المباراة آخر النهار بدون تذاكر ، خلع الاولاد ثياب العيد حتى لا تتسخ ووقفوا أنصاف عرايا ، بعضهم يعيد كنس الجرن وبعضهم يزيح الى الوراء أكوام القش التى تزحف قريبا من خطوط الملعب ، وبعضهم ينقل الجير لمن يرسمون به خطوط الملعب ، أما القائد فقد شغل الى جوار ملاحظتهم بالعمل الكبير الذى يجعل من المباراة مباراة ، دق قوائم خشبية للجول ، واعداد مكان خاص من الجرن فى الجزء المقابل لمنتصف الملعب حيث تصف الكراسى التى سيجلس عليها عباس بك نفسه ومعه العمدة وكبار الرجال فى القرية ليشهدوا المباراة ... ذلك يوم لم تشهده الزهايرة حتى فى أيام الوفد .. ! وهو أيضا كما قال شريف رجب :

– هذا يومك يا رجب .. !

***

حين وصل صندوق المرجيحة الى أعلى ارتفاع له ، ألقى الولد الذى كان يجلس فيه بحزمة من الاعلانات كانت فى يده ، وتناثرت الحزمة فى الهواء قبل أن تواصل الهبوط التدريجى فى دائرة أوسع بكثير من دائرة المرجيحة .. وقبل أن تصل الى الارض كانت أصابع الاولاد تستقبلها وهى تتأرجح فى الفضاء ، وحول كل اعلان كان يتجمع الصبية حول من يستطيع منهم القراءة « المباراة الكبرى بين فريق الأسد المرعب بالزهايرة وبين فريق السنبلاوين » .. وتتوالى أسماء الفريقين ، وذهل الاولاد حين وجدوا اسم «عطية» مطبوعا على الورقة مع أسماء بقية اللاعبين وحين عرفوا ان ثمن

التذكرة ثلاثة قروش للكبار وقرشان للصغار ... راح كل ولد بعد ما تبقى معه من مصروف العيد ليضع ثمن التذكرة فى جيب ، وبقية المصروف فى جيب آخر وأكثر شىء أدهش الاولاد فى الاعلان انه فى الوجه الآخر من الورقة طبعت صور لبعض لاعبى الكرة المعروفين فى القاهرة وتحتها كتبت بالمطبعة بعض أسماء لاعبى الزهايرة وكانت الطباعة رديئة لدرجة ان الاولاد يصدقون ان الصور حقيقة للاعبى بلدهم ، والشىء الوحيد الذى ضايق البعض ان اسم عطية ظهر بين الاسماء ولكن صورته لم تظهر بين الصور !

***

فى منزل الحاج ابراهيم حيث تتوالى موجات الزائرين والمهنئين بالعيد ، انتهز أحمد لحظة خلت فيها الحجرة من الزوار .. ألمح الى أبيه بصوت متردد الى أن هناك احتمالا أن يبكر الفريق الضيف فى المجىء ، وفى هذه الحالة قد يحتاج الفريق الى غداء أو على الاقل ما يشبهه .. لمح على وجه أبيه امارات استياء ، تحول الاستياء الى سؤال عصبى :

ـ لماذا لا يتغدون فى سراى عباس بك المواردى ؟ أليس ابنه هو صاحب هذا المولد كله ؟ أليس هو الداعى ؟ هل دارنا أكبر من دارهم ؟ هل أرضنا أكثر من أرضهم ؟

لم يرد أحمد ، ظل مطرقا فى حيرة ثم قال بعد أن صمت والده :

ـ قد لايجيئون ... ولا تكون هناك مشكلة ؟

أستطرد أبوه وكأنما أراد أن يبرر قوله أمام ابنه :

ـ أنت تعرف ان بيتى مفتوح ... وطعامى مبذول ، ولكنى لا أحب لك أن تكون الحائط القصير الذى يستند اليه الجميع !

ظل أحمد صامتا ومطرقا فى وجوم ، فوجى بأبيه يقول له :

ـ لا تكدر نفسك فى هذا اليوم ، واذا حكمت فسأكون لها ، كل ما أريده ألا يستلين الناس عودك ؟

نادى الحاج ابراهيم على ابنته « فتحية » التى كانت فى زيارتهم بمناسبة العيد .. قال لها :

ـ ابقى معنا اليوم .. لتساعدى أمك واخوتك فى اعداد الطعام لو جاء الضيوف ! ثم مضى لاستقبال من جاءوا لتوهم من الزائرين !

قالت فتحية لأحمد وهى تهون عليه :

ـ لا تغضب ... انت تعرف أباك .. لو جاءوا فسنعمل لهم أشهى طعام .. خير ربنا كثير .. المهم أن يبارك الله فيك ونراك مثل شريف بن عباس بك !

فتحية أكبر شقيقاته وأكثرهن جمالا وجراة ، وأطول اخوته لسانا .. ! أحيانا كان يتمنى ان تكون له جرأتها وطول لسانها ، سألته :

ـ هل سيحضر شريف بن عباس بك مع الضيوف ؟

لم يفهم معنى لسؤالها ، قال :

ـ جائز يحضر !

قالت :

ـ « راضى » له طلب عند عباس بك .. ولو كلم شريف أباه فى هذا الطلب ..

قال أحمد دون أن يسأل عن الموضوع :

ـ فيما بعد .. المهم أن يمضى اليوم على خير .. ! وبعدها أكلم شريف فى أى وقت وفى أى شىء تريدين ..

انصرفت أخته شبه واثقة من ان مشكلة زوجها عند عباس بك سوف تحل ، زوجها ابن عمه أيضا ، هذا عم آخر عاش لايملك أرضا وحين مات لم يعش من أولاده غير « راضى » هذا ، أحب أخته وأحبته .. تقدم لخطبتها .. لم يتردد أبوه فى الموافقة ... فقير حقا ولكنه فلاح من أشطر الفلاحين فى القرية ، يزرع فدانين فى أرض عباس بك المواردى ، ولكنه لا يكتفى بالزراعة ، فهو يتاجر فى الفاكهة حينا ، وفى الزرع حينا آخر ، ودائما فى روث الحمام ، فقير حقا ولكنه يكسب الكثير وينفق الكثير ... المال يجرى فى يده .. يلبس أغلى الثياب ، دخل الراديو بيته قبل أن يدخل بيت الحاج ابراهيم !

يتمنى أحمد أن يصنع لراضى الخدمة التى تود أخته ولكنه لا يحب أن يعرف شريف ان زوج أخته يزرع فى أرضهم ! يمكن أن يقول له انه أحد أقاربهم أو جيرانهم ، لكن ماذا لو عرف الحقيقة .. ماذا لو عرف انه لا يريده أن يعرف الحقيقة ؟ لكن لماذا

لايترك التفكير فى هذا الموضوع حتى ينتهى هذا اليوم على خير !

***

وصل فريق السنبلاوين فى الساعة الخامسة بعد الظهر، وبذلك انتهت حالة التوتر التى سادت منزل الحاج ابراهيم بعض الوقت أعطى شريف سائق التاكسى الذى يقل الفريق عشرة قروش زيادة على أجره ، وطلب منه أن يطوف القرية بالفريق ، ويده على بوق السيارة فى ايقاع مثير كنوع من الدعاية لوصول الفريق واقتراب موعد اللعب !

كانت هذه المحاولة كافية لتفرق القرية فى موجة من الضجيج والتراب ، وصراخ الصبية ، وهتافهم !

ولا أحد يدرى كيف تسربت هذه الموجة الى الحجرة الداخلية التى يجلس فيها الحاج حبيب وحوله الرجال الكبار فى القرية ، وحين سألهم عن السبب حكوا له فى ايجاز قصة المباراة الكبرى. قبلها .. قبل تلك الحكاية .. كان الرجل العجوز يتكلم ويسمع ويضحك ويغضب ولكنه بعدها صمت . قال الذين كانوا معه.. لم يعد بعدها للكلام .. كأنه كان ينصت الى شىء أو ينتظر شيئا !

***

قال شريف لأحمد :

– لا أحد غيرك يصلح لهذه المهمة !

وكانت المهمة هى مهمة بيع التذاكر وجمع النقود ، قال أحمد :

– أى شىء عدا مسألة الفلوس هذه ؟

– ليس هذا رأيى .. الفريق كله مصر عليك !

– أى فريق ؟ الذى سيلعب وهو لايعرفنى أم الذى يعرفنى ولن يلعب منه سوى ثلاثة !

– لا معنى لأن نختلف الآن على مثل هذه المسألة ، تعال واسألهم جميعا ... قالوا : لو جمع الفلوس بدون تذاكر لما كان لدينا مانع!

***

أغلق المدخل المؤدى الى الجرن بفرع كبير من شجرة سنط عدا جزء يسمح بمرور الناس واحدا بعد الآخر ، أول المدخل جلس أحمد أمام منضدة خشبية عليها التذاكر ، وبها درج نصف

مفتوح يتلقى النقود ، على مقربة من المنضدة وقف « رجب » وفى يده عود من الخيزران يمنع به الاولاد من محاولة التسلل حول فرع شجرة السنط . كانت نظراته تتوزع بين الاولاد الذين يحاولون التسلل وبين النقود التى تتساقط كالمطر فى الدرج المفتوح ولكن منظر النقود هذه المرة لم يفقده صوابه ، كان هو الذى يقوم بدور الحارس للمدخل وللملعب وللنقود ولكل شىء ، كان يشعر انه صاحب المولد ، فكيف يفقد صوابه ..

***

الساعة تقترب من الخامسة والنصف موعد بدء المباراة ، المدخل المؤدى الى الجرن يختنق بالناس الذين يتدفقون من البلد ومن العزب المجاورة ، كيف عرفوا جميعا ؟ وكيف جاءوا جميعا قبيل بدء المباراة بلحظات ؟

التذاكر تنفد ، والقروش تتساقط بلا حساب ، كان كل واحد يدفع ثمن تذكرة ، ثم لما شاع خبر نفاد التذاكر أصبح كل واحد يدفع ما معه ، ولم يكن هناك من يأخذ أحمد رأيه فى الموضوع ؟

كان يدرك ان الموقف كله يوشك أن يفلت من يده ! وخشى أن يفقد الناس صوابهم مع بدء المباراة ، ولم يكن ما يخافه أن يدخلوا بغير فلوس ، بل أن يطيحوا به وبالمنضدة ، وبفرع شجرة السنط فى لحظة اكتساحهم للمدخل .. قرر أن يترك مكانه ولكن حتى هذا ينبغى أن يتم بهدوء ، والا ضاع كل شىء ، أين محمد الجندى ؟ وأشار الى رجب ليرسل من يأتى به من الملعب ؟ مكانه الحقيقى هنا لا هناك

فرع السنط يتململ تحت ضغط الناس ، صرخ محمد الجندى وهو يشق طريقه من بعيد :

– واحد واحد ياغجر !

كان أحمد يريد أن يوضح له انه لايريد سوى فرصة لمغادرة المكان ، ولكن حين وصل محمد الجندى أصبح هو سيد الموقف ، لم يكن فى انتظار توجيه من أحد .. حمل فرع السنط فى يده كما يحمل طفل لعبة ولوح به فى وجه الجمهور المتزاحم ، تراجعوا جميعا فى ذعر ، سقط خلفهم بعض الاطفال ، وارتفع صراخهم مع صفارة البدء فى المباراة ، نظر الى أحمد قائلا :

— والآن لماذا لا تحمل نقودك وتمضى من هنا ؟
— لم أكن أريد غير ذلك !

وحمل أحمد المنضدة بينه وبين رجب الى داخل الجرن الى مخزن فى داخل الجرن ، وظل « محمد الجندى » واقفا يحرس المدخل حتى تم تراجع أحمد ورجب ، وصاح فى الجميع :

— الآن ادخلوها بسلام آمنين ، وبدون فلوس .. !

وقف محمد الجندى على باب المخزن الذى لجأ اليه أحمد بنقوده .. وجده يعد النقود .. صرخ فيه :

— ماذا تفعل ؟ المباراة بدأت ...
— احسب الفلوس التى جاءت بعد نفاد التذاكر ..
— يا أخى قم .. أى نقود ؟ وأى تذاكر ؟ لست فى بنك .. وليس هناك من يحاسبك !

ولكن أحمد لم يترك مكانه الا بعد أن فرغ من عد النقود ، ووضعها فى حقيبة جلدية كانت معه ..

المباراة فى بدايتها ، الزهايرة تتفرج على المباراة وأحمد الذى اندس وسط الناس يتفرج على المباراة وعلى الزهايرة معا !

فيما يقابل منتصف الملعب يجلس « عباس بك الواردى » وحوله العمدة والحاج ابراهيم والشيخ عرفه وبقية الرجال الكبار فى القرية على صف من الكراسى .. عباس بك بشعره الاشيب ومنظاره الذهبى ، وملامحه السمراء القوية التى منحت سمرتها وجاذبيتها لنجوى وشريف ..

« عباس بك » يرتدى كعادته حين يكون فى القرية جلبابا من السكروتة ويدخن سيجارة فى مبسم أبنوسى مطعم بالذهب ، ولا ينسى بين لحظة وأخرى أن يميل برأسه مرة ناحية العمدة ، ومرة ناحية الحاج ابراهيم ، وحولهم وحول الملعب كله تلتف الزهايرة ، جلاليب العيد الملونة الزاهية ، الصف الاول يجلس على الارض وتتوالى خلفه صفوف الواقفين ! مئات العيون تتابع الكرة فى صعودها وهبوطها ، فى حركتها المجنونة المتغيرة والمفاجئة التى توشك أن تصيب الزهايرة بالجنون .. جنون الحركة والصياح والقلق والاعجاب والخوف والفرح .. لا ... ليست تلك هى الزهايرة التى

يعرفها أحمد ! مثل هذا العدد لم يتجمع فى مكان ! مثل هذه المشاعر لم يزدحم بها قلب رجل واحد ، أو قلوب الرجال ، ربما تلك هى المرة الاولى حقا التى تشعر فيها الزهايرة وتفكر بأمر واحد .. بمشكلة واحدة .. وأبدا لم تكن المشكلة قبل اليوم بهذا الوضوح .. وفى حجم الكرة .. ولم تكن الطريقة التى يشعرون بها ويفكرون واحدة كما كانت فى هذا اليوم . تتحرك الكرة .. فيتحرك معها أمل واحد ، أو خوف واحد ، أو فرحة واحدة وتند عن كل الشفاه نفس الصرخة !

ثم ينقلب كل شىء فى نفس اللحظة الى النقيض ، هل عرفت الزهايرة فى حياتها مثل هذا الزمن ؟ هل عرفت لحظة واحدة تتفجر بكل هذه المشاعر المتناقضة والمترددة ؟ أتلك حقا هى المعجزة التى كان يحلم بها « محمد الجندى » لتتحقق ثورة الفلاحين أن يتعلم الناس الذين يعملون معا كيف يفكرون ويشعرون معا أيضا .. ؟

أن يصبح الرجل الواحد المتوجس الخائف بمثل هذا العدد الهائل .. وأن ينهار الهواء الذى يفصل بينه وبين رفاقه من الرجال الخائفين .. ؟ وما معنى ألا تتحقق هذه المعجزة الا حول الملعب حين تصبح الكرة فى مكان الرأس لهذا الرجل الذى يملك ألف قدم وألف ذراع ولا يدرى ماذا يصنع بها ؟ هل تمنى أعظم الانبياء فى الماضى أكثر من أن تكون لكلمته مثل هذا التأثير... وأن تتحرك لها القلوب بمثل هذه الطواعية ، وأن يكون لها هذا القدر من الوضوح والبساطة ؟

ولكن لماذا يصبح للكرة وحدها سحر الانبياء فى هذا العصر ، لماذا هى التى تجمع كل هؤلاء الناس فى دائرة واحدة يتجاور فيها عباس بك والحاج ابراهيم ومحمد الجندى ورجب .. و ...

ونجوى .. متى جاءت نجوى .. لتأخذ مكانا نائيا عند بداية الملعب لتجلس هى واحدى صديقاتها على مقعدين أحضرهما رجب ووقف وراءهما كالحارس ! اجتذبتها الكرة ... جاءت بها من محارتها .

ما الفائدة .. لن تشعر به ، ولن تراه فى هذا اليوم المشهود ! لا مكان له بين اللاعبين ، وليهنأ صبرى الذى لا يبالى بها ، ولا بأخيها مع انه يلعب اليوم بجواره ، ويقود معه هجوم الزهايرة ، لو

ان عقله جاء فى قدميه لأمكنه اليوم أن يسلب عقلها ، كانت هذه ستكون فرصته الوحيدة ، أصبحت جزءا من هذا الحشد .. توحدت معه .. تصفق وتقف وتجلس وتخاف وتصرخ وتلوح معه ، وتزداد جمالا مع كل ما تفعله .. قد تكون تلك فرصته الوحيدة ليراها عن قرب .. ليرى الجمال فى لحظة تحرره وجنونه ، لاشك أن لاعبى السنبلاوين قد شعروا بوجودها ... تعمد لاعب منهم أن يقذف بالكرة فى اتجاهها ويذهب بنفسه ليأتى بها من تحت قدميها، لا أحد يمكنه أن يحاسب هذا اللاعب على ما يبدو طبيعيا فى مثل هذه الظروف .. هجوم لاعبى السنبلاوين يزداد عنفا . وأصدقاء شريف من القاهرة يلعبون بثقة من يعرف انه لابد أن يحرز النصر فى النهاية ، فكيف يصمد أمامهم هؤلاء الفلاحون ولو كانوا من السنبلاوين !

السنبلاوين تحرز أول هدف .. وتجن الزهايرة وتقضم نجوى أصبعها فى غيظ ، ويظن بعض الاهالى من العزب المجاورة ان واجبهم فى مثل هذه الحالة أن يتدخلوا بأنفسهم لرد اعتبار البلد ، ولكن محمد الجندى بحجمه الهائل يتدخل فى الوقت المناسب ليعيد من تجرأ من الاهالى على دخول الملعب !

من يضمن أن يظل محمد الجندى قادرا على الامساك بهذا الحيوان الخرافى الذى يحيط بأرض الملعب والذى لايدرى ماذا يفعل بآلاف الايدى والاقدام التى يمتلكها ما دام رأسه فى حجم الكرة..؟

وكأنما أدرك أصدقاء شريف فى أرض الملعب ان احراز نصر للزهايرة أصبح ضرورة أمن وسلامة فلعبوا بجد .. أحرز شريف أول هدف للزهايرة فكاد الجنون يصيب الناس .. ثم تتابعت الاهداف .. لتصبح الزهايرة هى الفائزة بثلاثة اهداف ضد هدف واحد !

بعد نهاية المباراة طاف الحيوان الخرافى بكل شوارع القرية .. كان على رأسه هذه المرة عطية بن جمالات الفلاح الوحيد الذى اشترك فى المباراة . ذهب بقية الفريق ليغير ملابسه ويشرب ويستريح ويأكل فى سراى عباس بك .. عطية وحده هو الذى كان يصلح لأن يأخذوه بعرقه .. بفانلته المتسخة بجوعه وظمئه ليصنعوا منه بطلا كانت الزهايرة فى جوع اليه ..

فى تلك الليلة لم تنم الزهايرة .. تكلمت كثيرا وضحكت كثيرا.. وتعجبت من احرازها النصر وهى قرية صغيرة على مدينة السنبلاوين .. وحين قال البعض فى شبه انكار :

ـ لولا شريف وضيوفه ..

رد الآخرون فى ثقة :

ـ ولكن شريف ابن بلدنا .. وضيوفه ضيوفنا كذلك ..

ولم يعد هناك من يجادل فى ان الزهايرة هى التى انتصرت ، وحين انتهت أصداء اليوم المشهود الى الحاج حبيب وكان لايزال غارقا فى صمته .. حين قالوا له :

ـ لقد انتصرت الزهايرة على السنبلاوين ..

سألهم :

ـ ألم يحدث شىء ؟

وسألوه باستنكار :

ـ أى شىء ؟

وقال الحاج حبيب دون أن يرد على سؤالهم :

ـ الحمد لله .. الحمد لله .. وبعدها لم ينطق بكلمة .

فى اليوم التالى قال الطبيب الذى حملوه اليه :

ـ انها ضربة شلل قد يشفى منها اذا داومتم على هذا العلاج !

***

فى تلك الليلة أيضا .. لم ينم رجب الصعيدى ولم يجلس مع أحد .. انزوى فى ركن قصى فوق حزمة كبيرة من القش فى جرن الوسية حيث جرت وقائع اليوم الكبير .. فى بداية هذا اليوم قال له شريف :

ـ هذا يومك يا رجب !

وطوال النهار وهو يومه بحق .. هو الآمر الناهى ولولاه ما أمكن للزهايرة أن تجد وقت اللعب ملعبا لائقا بمثل هذه المباراة وبمثل من حضرها من كبار الناس وصغارهم .

وفى نهاية اليوم .. أصبح اليوم يوم «عطية بن جمالات» حملوه على أكتافهم وزفوه فى شوارع البلد وحاراتها .. وبات الناس ولا حديث لهم الا عنه .. ذلك الولد المدكوك كجوال أرز ، الغبى

كحمار ، والقوى كبغل ، والذى لا يصلح الا فى الجرى ، أخذ مكانه فى غيط الشيخ عرفه ، وبيته ذات يوم ، وها هو يأخذ مكانه مرة أخرى فى الزهايرة كلها كبطل الابطال ... دائما كان هناك من يأخذ مكانه .. ودائما كان هو الذى يحلم بأن يكون بطلا ، فى طفولته سمع الكثير عن بطولات أبيه الذى لم يبصره أبدا ، والذى ظل كلام الناس عنه فى « القوصية » يدوى فى أذنيه ، يتحدثون عنه كما يتحدثون عن « أبو زيد » الذى دوخ الفوارس ، كان ابن ليل يعمل الناس له ألف حساب فى الليل وفى النهار ، وحين كان يفكر فى أبيه كان يراه مثل « أبو زيد » الذى يرى صوره فى مقاهى البلاد التى مر بها مع عمه «جاد الرب» حين خرجا من «القوصية» فى رحلة طويلة الى بحرى ، لم يعودا بعدها أبدا الى بلدة أبيه !

فى تلك الرحلة عملا فى بلاد كثيرة ، فى عمائر كثيرة فى ترع وطرق كثيرة ، غاصا فى الطين ، وصعدا فوق السقالات الى أعلى الادوار .. ودائما كان هناك مقهى يلجأون اليه ، ليشرب عمه الجوزة والشاى وليبحلق هو فى صورة « أبو زيد » التى تطالعه فى جدار المقهى.. بينما يروى الشاعر قصته على الربابة ..

دائما كان أبو زيد ينظر اليه بينما السيف فى يده يشطر رأس عدوه .. لم يكن أبو زيد ينظر الى عدوه أبدا وهو يضربه .. كان ينظر الى رجب ليذكره بصورة أبيه ، وحين انتهى بهما المطاف الى الزهايرة ليعملا فى مشروع « بساط كرم الدين » لمد مواسير المياه النقية فى قرى تلك البلاد مات عمه فى الزهايرة .. ومنذ ذلك الحين لم يعد يبصر أباه فى صورة أبو زيد ، أصبح يراه فى صورة عمه « جاد الرب » ، له شاربه الكثيف وكوفيته وعيناه الغائرتان، وطريقته فى الكلام ، وكان ما يضايقه ان عمه مات كما يموت سائر الناس ، لم يمت كما يموت الابطال ، فالابطال يموتون بالسيوف أو برصاص البنادق أو بالسكاكين كما مات أبوه !

وفى الزهايرة التقطه الحاج حبيب ليعمل فى حقله ومع أولاده ، عاش فى بيت الرجل العجوز الطيب .. أكل مع أولاده على طبلية واحدة ، ونام معهم فوق حصيرة واحدة وتغطى بنفس الحمل الصوفى الثقيل ، ولم يكن يأخذ أجرا ، ولم يكن يطلبه أو يفكر فيه

.. استراح للمقام وللمأوى ولطيبة الرجل العجوز وحنانه رغم شدته وصرامته .. استراح لأن يألف الناس ويألفوه .. ولا يدرى كيف استيقظ حلم البطولة فى خياله مرة ثانية .. ربما مع سؤال الناس له عن أبيه ، وعن البلد الذى جاء منه ومع حنان الرجل العجوز ..! دائما يثير الحنان والاهتمام أحلام البطولة فى خياله.. ومن جديد تنسلخ ملامح أبيه عن ملامح عمه .. تسترد شوارب أبو زيد ، وقدرته التى لا تنتهى على صنع العجائب .. وحين كف الناس عن سؤاله عن أبيه .. كان هو نفسه قد أصبح موضوع حديثهم كان عوده قد استدار ، وعضلاته قد تكونت . ولم تكن هناك ميادين حرب تتسع لبطولته ، كانت هناك أراض تحرث وتروى ، وأكوام سباخ تكوم أمام البيوت لتنقل فى مواسم الحرث الى الحقول ، فاستخدم فأسه كما كان أبو زيد يستخدم سيفه ، وراح يصنع أمجاده وبطولاته فى هذه الميادين ، وتحدثت الزهايرة طويلا عن هذه الامجاد ، يزدهيه أن يتحدث عنه الناس فى غيابه ثم يأتى شخص لينقل له هذا الحديث ، فبهذه الطريقة كان يتحدث الناس عن أبيه الذى لم يبصره أبدا !

وقال له الشيخ عرفه ذات يوم وهما يخرجان معا من المسجد، قال وهو ينفض حذاءه لينظفه من التراب :

— لماذا لا تعمل فى أرضى بأجر بدلا من أن تعمل فى أرض الحاج حبيب بلا نقود ؟

— الحاج حبيب هو الذى ...

وقاطعه الشيخ عرفه :

— انت لم تعد صغيرا يا رجب ؟ وغدا سوف تتزوج ، ولا بد أن يكون معك نقود و ...

وبدأت رحلته وراء النقود داخل الزهايرة من بيت الى بيت .. ومنذ بدأت هذه الرحلة وأحلام البطولة تخفت فى راسه الا حين يحب أو يعشق .. نقود كل سنة ثم كل شهر ثم كل يوم ، ولكنه لم يفطن الى ذلك الا بعد أن ضاع الوقت .. وبدأت قواه تخور ، وأحاديث الناس عنه تختفى وتختلف ، فى تلك الأثناء عاودته ذكرى أبو زيد .. ذات ليلة سأل نفسه لأول مرة :

ـ كيف كان يعيش هذا الفارس ؟ وكيف لم يسمع مرة واحدة ـ على كثرة ما سمع من قصة أبو زيد فى المقاهى ، وعلى الربابة ـ كيف لم يسمع انه مرض كما يمرض الناس ..

وهل كان يملك أرضا يعمل فيها أجراء مثل رجب وكيف كان يعاملهم وهل كان يرضى بظلمهم ؟ أم كان هو نفسه أجيرا لم يرض بظلم صاحب الارض فجر عليه سيفه ، ومضى يضرب به كل الظالمين!

وحين بدأ يفكر فى هذا كله لم يكن هناك فى الزهايرة من يتحدث عن « أبو زيد » ليسأله فيما يفكر فيه ! كان هناك من يتحدث عن الوفد .. ثم من يتحدث عن الثورة ... وسمع انهم سوف يعطون أرضا لمن هم مثله ، ولكن أحدا من الاجراء فى الزهايرة كلها لم يأخذ شبرا من الارض « فعباس بك المواردى » أغنى أغنيائها لم يأخذوا منه فدانا واحدا ولم يكن يعرف ماذا يفعل بهذه الارض لو أعطيت له الآن وبعد أن ضاعت قواه ..

واختفت من رأسه صورة « أبو زيد » كما اختفت صورة له كانت فى دكان الخلفاوى وحلت مكانها صورة لمجموعة من الضباط قالوا له انهم هم الذين قاموا بالثورة !

خذله كل الناس .. خذلته حتى زوجته التى أحبها وطردته من بيته ، واستقر فى مسجد الزهايرة ينظفه ويملأ خزانه الكبير بالمياه ، وينام فيه ويصلى .. رجل واحد هو الذى مد اليه يده بعد أن تراجعت كل الايدى .. الشبراوى تاجر الحشيش والافيون قال له :

ـ ما أريده منك لا يحتاج الى عافية بل الى شجاعة وانت فارس الفوارس .. المهم ألا يعرف أحد شيئا فى الزهايرة ... تبقى كما أنت فى المسجد ، ثم تغيب عنه ساعات قليلة تنقل البضاعة من قرية الى قرية اخرى مجاورة ..

ومن جديد عادت صورة أبو زيد تخفق فى رأسه ، أعطاه الشبراوى نقودا فى البداية ، وعلمه شرب الحشيش حتى أدمنه ، ثم أصبح يأخذ أجره حشيشا ، وأصبح حرصه على المزاج ضمانة لخضوعه وحرصه على السر ، وتحولت مرارته من الزهايرة الى سخرية منها ، ومن نفسه . كان قد فقد قدرته حتى على الكراهية ،

واعتقد ان أبو زيد لابد قد عرف الحشيش فى جولاته من الشرق الى الغرب ، وان هذا هو سر شجاعته الدائمة ، وحين قبض على الشبراوى ذات مساء كاد يسقط فى فراغ مخيف ، فقد صوابه يوم رأى الناس يدفعون نقودهم من أجل النادى ! تمنى لو ظل يضربهم ويضربونه حتى الموت لولا أن امتدت اليه يد شريف ، ذلك نوع آخر من الناس ابن بكوات بحق وحقيق ... أحس بحنانه ، حين قال له الحاج سليمان الناظر الذى يشرف على زراعة أرضهم :

ـ ماذا نفعل بهذه المصيبة ؟ يا أستاذ شريف سوف يغضب البك والدك ... فلسنا بحاجة اليه ؟

قال له :

ـ لاشأن لك بهذا ، سوف أكلم بابا ، دعه يشرف على سقى مواشى التربية ..

وعاد الناظر يقول له ... لرجب :

ـ بعد أن يسافر البك الصغير سوف ألقى بك فى المصرف ..

ولكن شريف هو الذى طمأنه ... قال له :

ـ سوف آخذك معى الى القاهرة اذا أحببت .

ومع شريف .. الذى كان يتحدث معه ساعات طويلة ، ويذكره بحنان الحاج حبيب ، ومع نجوى التى كان يرافقها أحيانا الى الحقل لترى الزرع .. وأحيانا الى حظيرة المواشى لترى الحلب ، والتى كانت أحلى امرأة رآها فى حياته .. معهما استيقظ حلم البطولة من جديد فى خياله .. تمنى لو عادت له قواه الضائعة ليصنع شيئا .. أى شىء من أجلهم .. لاشك ان « الجازية » التى كان يحبها أبو زيد كانت فى جمال سيدته « نجوى » ولم يكن هناك ما يفعله لهم سوى اعداد الملعب فى يوم العيد ! لو طلب منه شريف بك أن يحرق الزهايرة لما تردد .. ولكن شريف المهذب الامير لن يطلب منه أبدا شيئا كهذا .. كان هو الذى ظل يبحث عنه فى تلك الليلة بعد أن انفض المولد .. ووجده منزويا فوق كومة القش فى جرن الوسية ..

سأله :

ـ لماذا تجلس هنا وحدك ؟ هل تعشيت ؟ أمرك غريب يارجب؟

هل تريد شيئا ؟ هل أغضبك احد ؟
قال له :
– لا .. لاشيء .. اريد نقودا ..
أعطاه شريف ريالا وقال له :
– اذهب أولا وتناول عشاءك !

– ٢١ –

وقف صبى فى العاشرة من عمره .. وقف فى منتصف الطريق، مائلا بعنقه ليتمكن من قراءة اللوحة السوداء التى كتب عليها باللون الابيض « النادى الرياضى الثقافى الاجتماعى بالزهايرة » والتىعلقت منذ ساعات على واجهة منزل كان يسكنه فى العام الماضى « على افندى الاسيوطى » المدرس بالزهايرة ، وكان الصبى يضع كفه على أعلى عينيه ليحجب عنهما وهج الشمس ، وحتى يتمكن من القراءة ، وحين انتهى من قراءة اللافتة كان عدد آخر من الاولاد قد تجمعوا حوله .. ولم يكونوا جميعهم قادرين على حل ألغاز هذه اللوحة.. فعاد يقرؤها لهم بصوت مرتفع ، ثم تفرقوا جميعا فى أنحاء القرية.. يرددون الخبر .. ولكن أحدا من الاولاد الذين سمعوه .. لم يصدق الا بعد أن جاء بنفسه ورأى اللوحة ، وهكذا كان الاولاد هم الذين أعلنوا خبر النادى فى القرية قبل أن يفتتحه التلاميذ بعد ذلك بأيام قليلة !

***

فى هذه الايام القليلة كانت فلوس المباراة الكبرى قد تحول بعضها .. الى ترابيزة بنج بنج ، ودولاب للمكتبة .. أما الكتب فقد تبرع كل تلميذ ببعض ما لديه منها ، كما أحضر كل تلميذ كرسيا أو اكثر وتبرع « شريف » بمنضدة التأم حولها شمل الكراسى وشطرنج وطاولة ، وزينت حوائط النادى ببعض الآيات القرآنية الكريمة ، وبلوحات من رسم شريف ، كما زينت بنتيجة حائط ، وحين اتضح ان معظم الكراسى التى تبرع بها التلاميذ فى حاجة الى اصلاح حقيقى .. وطالب البعض باستبدالها بكراسى حقيقية ، اقترح شريف أن يقوم النادى باصلاحها على حسابه ، وقال رجب الصعيدى الذى أصبحت العناية بنظافة النادى بعض مسئولياته :

— بشرط ألا يسترد أحد كرسيه الا بعد أن يرجع الى حالته التى وصل بها الينا ! فلم يفتح النادى لاصلاح كراسى الزهايرة !

وقال شريف ضاحكا :

— سوف يصلح النادى الزهايرة نفسها يا رجب ، ألا تصدق ؟

***

أمام دكان الخلفاوى كانوا يتحدثون عن حفل افتتاح النادى ، وعن نتائج انتخاباته ... ولم يكن الخلفاوى بقادر على متابعة الحديث الذى يدور بين الجالسين أمام دكانه .. فبين وقت وآخر كان يشغله زبون بطلب قطعة صابون أو باكو دخان ، أو قطعة قماش ، ومثل هذه الطلبات كانت تأخذ منه وقتا ، فبعضها كان يبيعه نقدا وبعضها كان يضطر الى تسجيله فى دفتر يومية على الحساب ، وكان الخلفاوى ممن أقلقتهم مسألة الكرة وأصبحت تقلقهم أكثر مسألة النادى .. فدكانه بموقعه الممتاز فى القرية ، هو المجلس المفضل للتلاميذ ولغيرهم .. يسمعون الراديو ، ويقرءون الصحف التى يواظب على احضارها كالبضائع .. وتزداد بوجودهم حركة البيع والشراء ! ومنذ بدأ جنون الكرة والنادى يجتاح القرية ، وهو يشعر ان خطرا ما يتهدد الدور الهام الذى كان يقوم به دكانه الى جوار البيع والشراء ، وفى هذا اليوم تناهى اليه حديث الناس فلم يسمع سوى هذه المقاطع :

— شريف هو الذى نجح كرئيس للنادى .

— طبعا .. لولاه لما تحقق شىء !

— كان المفروض أن يكون الرئيس من المقيمين فى القرية حتى يرعى شئون النادى طول العام !

— اذن كان لابد أن ينتخبوا رجب الصعيدى رئيسا .

— تصدقون هذه الحكاية ؟ سوف ينتهى كل شىء بمجرد سفر التلاميذ للدراسة !

— . . . . .

— . . . . .

— انتم تحلمون .. مشروع كهذا يحتاج الى ثلاثين جنيها على الاقل ..

— لا .. سوف ينيرون القرية بالفوانيس .. وهى لا تكلف كثيرا ..

— لقد جمعوا من المباراة مبلغا كبيرا .

— لا أحد يعرف حقيقة المبلغ ، أغلب الفلوس كانت بدون تذاكر!

— . . . . .

— . . . . .

— . . . . .

— هذه أكاذيب .. أحمد تلميذ على خلق .. لا يفعلها ...

— حتى اذا صدقناهم ، ونجح مثل هذا المشروع فهو يحتاج الى من يقوم برعايته ... من الذى سينير الفوانيس كل ليلة ، ويملؤها بالغاز ، وينظف زجاجاتها ؟

— « رجب الصعبدى » سيقوم بهذه المهمة ، ستكون تلك وظيفته !

— ومن الذى سيعطيه مرتبه ؟

— . . . . .

— . . . . .

— لقد نجحوا حتى الآن فى كل شىء قالوا عنه ولا بد أن نصدقهم ونعطيهم الفرصة !

— وأيضا نشجعهم .. نتبرع لهم .. لم يحدث شىء مما كان الناس يخشونه !

— قال شريف فى حفل الافتتاح اذا تعاونت الزهايرة معنا فسوف نصنع معجزة فى هذه القرية ، مشروع الانارة مجرد بداية وتجربة ، وهناك مشاريع كثيرة تتوقف على تعاون الناس !

— . . . . .

— . . . . .

— سمير ابن الشيخ عرفه وصديقه « خيرى » انضما الى النادى بعد أن عادا من معسكر أبى قير ووجدا النادى حقيقة واقعة !

— كثيرون سينضمون اليه .. فالنجاح يغرى !

- ٢٢ -

لم يعد الطريق الى الهدار ملتقى الاصدقاء من أعضاء « فريق الأسد المرعب » أصبح النادى مكان اللقاء وفى تلك الليلة تسلل الى طريق الهدار « أحمد » و « شريف » كان الطريق خاليا ، وكانا يريدان هذه الخلوة ، ليتحدثا فى موضوع يوشك أن يعصف بالنادى وبأحلام الزهايرة فيه بعد أن كادت تتحقق ، لا أحد يعرف على وجه اليقين من الذى بدأ بالهمس حول هذا الموضوع .. ؟ حول حقيقة المبلغ الذى جمع من المباراة ؟ واذا كانت التذاكر تشير الى بعضه فان جرن « الوسيه » الذى امتلأ بالمئات من العزب والكفور المجاورة يشير الى مبلغ يفوق كثيرا ذلك المبلغ الذى يزعم أحمد انه حصيلة المباراة .. لقد تكلموا أمام دكان الخلفاوى ، وفى مسجد الزهايرة ، وحتى فى النادى ولكن كل واحد يزعم انه يردد كلام الآخرين وانه نفسه لا يصدق

حين سمع « صبرى » بهذا الكلام لأول مرة صرخ فى محدثه :

ـ لابد أن تقول لى ممن سمعت هذا الكلام ؟

ـ الجميع يتكلمون .. ولست أحب احراج أحد ، أردت فقط أن أخبرك بما يجرى .

ـ الجميع جبناء مثلك .. حذاء ابن عمى أشرف منكم جميعا ..

ـ اذهب وقل لهم ذلك .. لماذا تصرخ فى كالمجنون !

ـ لن أذهب الى مكان يضم مجموعة من العيال !

ونقل صبرى هذا الكلام الى أحمد ، وأخبره بأنه لن يشترك بعد اليوم لا فى النادى ولا فى الكرة .. وحين فوجىء بتردد أحمد قال له :

ـ لا تصدق اننى كنت أتوقع خيرا من وراء هذه اللعبة كلها ... شاركت فيها للفرجة وحتى لا تغضب .. لعبةصيف .. هذه هى

الحكاية أما اصلاح حال الزهايرة .. فتلك مسألة كبرى لا يصلح لها هؤلاء الاولاد الذين يحتاجون لمن يصلح عقولهم أولا ...

ـ المسألة الآن هى كيف أنسحب ، واتركهم يلوكون سمعتى .. يجب أن أبقى ، وأن أدافع عن نفسى !

ـ هذه مسألة تخصك انت .. تصرف فيها بما يروق لك !

وحين انتهى أحمد من رواية ما دار بينه وبين صبرى لشريف قال الاخير فى هدوء :

ـ ما معنى أن أحدا لا يجرؤ على أن يوجه لك كلمة ؟

ـ ليتهم يواجهوننى ! اذن لعرفت كيف أدافع عن نفسى ؟

ـ لا تضع نفسك فى موقف الدفاع .. فذلك أول طريق للهزيمة!

وصمت أحمد وهو يخترق بنظراته سماء تخفق فيها نجوم بعيدة وشاحبة !

كان يدرك ضعف موقفه .. يدرك انه لايعرف حقا كيف يدافع عن نفسه ، ويعرف ان شريف يعرف هذه الحقيقة ، ولهذا يدعوه الا يأخذ موقف الدفاع ! كيف يدافع ؟ ضد من ؟ وأمام من ؟ ليست هناك محكمة ولا قضاة ! هناك همس ، كيف يدافع الانسان عن نفسه ضد الهمس ؟ بدأت المسألة كلها بثقة التلاميذ فيه ، لم يشك لحظة فى هذه الثقة ، وشريف هو شاهد هذه الثقة والمعبر عنها ولكن ها هى الثقة تسحب بنفس البساطة التى منحت بها ! الدليل الوحيد أو شبه الدليل أن « محمد الجندى » وجده بعد النقود التى دخلت الدرج بدون تذاكر ليفصلها عن بقية النقود ؟ وشاهد على انه لو لم يترك الناس يدخلون بعد بدء المباراة بدون نقود لكان كل شىء معرضا للضياع ! ولكن ما معنى هذا كله ؟ واذا كانت ثقة التلاميذ أو الناس به قد اهتزت فى هذا الموقف فكيف تكون لهم ثقة فى أى كلام يقوله « محمد الجندى » ؟

وحتى مثل هذا الدليل الاعرج لن يجد من يقدمه الا بعد أن يعود « محمد الجندى » الذى سافر فجأة بعد العيد ودون أن يخبر أحدا . قال شريف محاولا أن يخرج أحمد من صمته :

ـ الم تفكر مرة أن الناس يريحهم أن يكتشفوا فى أى شخص يتمتع بسمعة طيبة بعض الاخطاء وأن يلتمسوا ما يؤيد هذا الاكتشاف !

ـ ويل للشجى من الخلى !

ثم أضاف أحمد وهو يشير الى قطعة من الارض تصلح للجلوس:

ـ هنا ياصديقى ينبغى أن نجلس .. فهذا النوع من الكلام لا أقوى على الاستماع اليه وأنا سائر على قدمى ..

قالها أحمد بلهجة بين الكآبة والمرح ..

قال شريف وقد جلس مدليا ساقيه ناحية مجرى الماء فى ترعة البوهية :

ـ أتكلم بجد .. ولا أفهم كيف .

قاطعه أحمد بحدة :

ـ بى عيوب حقيقية ليست فى حاجة الى ظنون أحد أو شكوكه فلماذا يبحثون ..

قاطعه شريف بمرح :

ـ جائز انها لا تكفى فى نظرهم ..

ـ هل جئنا لنتكلم فى هذا الموضوع بهذه الطريقة ؟

ـ صدقنى أنا لا أفهم كيف تعجز عن فهم سلوك الناس فى موقف كهذا ؟

ثم استطرد شريف دون أن ينتظر اجابة على سؤاله :

ـ ربما كان هذا هو سر عشقك البرىء لفكرة العدالة ، هل فكرت ياصديقى ان الناس ليسوا حريصين على العدالة حتى حين لا تكلفهم أكثر من مجرد التروى ونزاهة التفكير ، فكيف تتوقع أن يعشقوا العدالة حين تكلفهم ما هو أكثر تعقيدا ومشقة ؟

قال أحمد بنبرة من يعترف وعيناه تبحثان هذه المرة عن النجوم البعيدة فى مياه الترعة الجارية تحت قدميه :

ـ حين عرفتك قلت لنفسى : هذا انسان يستطيع المرء أن يقول أمامه كل شىء يفكر فيه ، كنت أعتقد انك تستطيع ذلك أيضا أمامى .. ولهذا ....

ـ والآن ؟ هل وجدت ...

ـ لا ادرى .. لكن دعنى أتكلم دون مقاطعة ، قبل أن يثور هذا الهمس ... كنت أفكر فى أن أروى لك بصدق كامل كل ما هجس بخاطرى حين وجدتنى فى هذا الموقف ! دائما كنت أحلم

بالصداقة الكاملة التى تسمح بالصدق الكامل .. !

حين حدث الموقف .. وبدأت النقود تندفع الى الدرج بغير حساب ، اندفع الى رأسى هذا الخاطر : « هذه نقود لا يعرف عددها أحد .. يمكننى أن آخذ منها ما أشاء » أفزعنى مجرد اندفاع هذا الخاطر الى رأسى ، الطريقة الحتمية التى جاء بها ، وكأنه لابد أن يجىء ما دام مثل هذا الموقف قد حدث ، وفكرت ان نفس الخاطر سوف يندفع بنفس الطريقة الحتمية الى عقول الناس حين يعلمون بحدوث هذا الموقف ، وانه سوف تبدأ معركة فى عقول هؤلاء الناس بين ثقتهم بى وبين هواجسهم ، لا تختلف فى شىء عن المعركة التى تدور فى رأسى ، والتى يلخصها هذا السؤال : أين أقف ؟ مع ثقة الناس بى أم مع شكهم ؟

ولكن أى شىء يحسم هذه المعركة فى نفوسهم ؟ انه على كل حال ليس اختيارى .. فما أختاره لن يكون له أى تأثير موضوعى بالنسبة لهم ! انه أمر خاص بى أنا .. وبدأ عقلى يحسب كل الاحتمالات .. لو اخترت أن أقف الى جوار ثقتهم ثم شكوا بى فأية مرارة يمكن أن أجدها ؟ أما اذا أخذت ما أشاء ثم حدث الشك فلن يملكوا أى دليل ، ولن أشعر بأية مرارة ، بل سأقول لهم فى نفسى : كنت عند سوء ظنكم يا أوغاد ! أما اذا أخذت نقودا ثم لم يحدث أى شك ، فيمكننى أن أعيد النقود بأية وسيلة ولو فى شكل تبرع هذا اذا كنت انسانا ، أما اذا كنت وغدا فسأحتفظ بالنقود وبثقتهم ، تلك هى يا صديقى الاحتمالات التى دارت برأسى حين فكرت فى الموقف ، وهى تكشف لك عما يتمتع به الشر من الحماية والفواية ! كنت أفكر فى أننى أستطيع أن أروى لك هذا كله حتى ولو لم يثر الهمس حول هذه المسألة واثقا من انك سوف تصدقنى حين أقول لك اننى اخترت جانب الثقة فى نفوسهم ولكننى الآن أشك حتى فى انك انت نفسك يمكن أن تثق بى !

ساد صمت مرهق للحظات قال بعدها شريف :

ـ تفكيرك فى هذه المسألة بهذه الصورة يعنى ان فيك بذرة فساد .. أنا واثق انك لم تأخذ شيئا .. ولكنك أقرب الى الفساد مما تتصور .

ثم أضاف شريف بنفس النبرة الخالية من أى فكاهة :

— وحتى شكك الآن فى ثقتى بك أمر طيب فلست احب أن تكون ثقتك كاملة بأحد حتى بى .

— كيف تقول ذلك ..؟ أنت ترى ان الثقة ضرورية لكى يقاوم الانسان ! ولولاها ..

— الثقة ضرورية .. لكن الثقة التى تشعر دائما انك فى حاجة الى تأكيدها ، الثقة الكاملة مأساة كاملة .. تصور لو انك أو غيرك فى نفس الموقف ، وكانت ثقتك كاملة فى ان أحدا لن يشك فيك ! الا ترى ان الغواية تصبح أشد !

— ربما لهذا فان جوهر الاخلاق انك لا تلتزم بها لأى سبب خارجى ! بل أمام ضميرك وحده ! قالها وقد غلبته روح التجرد والتأمل ...

— أخلاق من هذه ؟ أخلاق الانبياء والقديسين ، أخلاق غاندى؟ دعنا نتكلم عن أخلاق « فريق الأسد المرعب » ، أعتقد انه يجب ان تنسى هذا الموضوع ... وأراهن ان الجميع هنا سوف ينسونه.. الذين يتهمونك والذين يدافعون عنك ! أما صبرى فأعتقد اننى سألين رأسه حين أتحدث معه ! سوف يكون أمرا سخيفا ان نترك النادى يغرق فى مثل هذا المستنقع بعد ان اجتاز العواصف !

ثم أضاف شريف :

— كيف يمكن أن أقابل صبرى ؟

وصمت أحمد لحظات وكأنه لا يجد اجابة على هذا السؤال .. فصرخ فيه شريف وهو يهم بالقيام :

— هل ستحدث كارثة فى بيتكم لو جئت وتفديت معك فى أى وقت تحدده أنت ؟

قال أحمد وقد أخذته المفاجأة :

— لا ..

ثم ضحك لأنه لاحظ انه قالها بجد .. !

- ٢٣ -

كان مسجد الزهايرة الكبير فى أواخر الصيف لايزال كما كان فى أوائله .. أنسب مكان يلوذ به من لا مأوى له أو من له مأوى لايطاق فى حر الظهيرة !

صحيح ان « رجب الصعيدى » الذى دأب الانفار على أن يلتفوا حوله فى المسجد لم يكن هناك .. ولكن الاولاد كانوا هناك .. وكانوا يلتفون حول « عوض » الذى أصبح يدير طلمبة المياه بالمسجد ، ويملأ الحوض القريب الذى تشرب منه البهائم ، أخذ بعض أعمال رجب وأخذ بنصيحته فى العمل يوما بيوم ، وأخذ دوره كاملا فى ادارة الحديث والتعليق على أحداث القرية ، وشئونها.. وكان رجب فى هذه المرة موضوع الحديث ، قال « عوض » بلهجة من لا يصدق :

— سيصبح أخوكم رجب موظفا على آخر الزمان ؟

— انت كمن يقول وجدنا الحدوة وبقى الحمار .

ضحك الانفار ، وتتابع الحديث :

— صدقتم حكاية الفوانيس هذه ؟

— انهم يتشاجرون كل ليلة فى النادى !

— هكذا الزهايرة .. زمان كانوا يتشاجرون قبل النادى والآن يتشاجرون فيه .

— لا .. هذه المرة المسألة تختلف .. سمعت انهم بعد شراء الفوانيس ، سينقلون أكوام السباخ من أمام البيوت لتوضع فى الخرابة المجاورة للجبانة !

— فى هذه الحالة يمكن أن نصبح كلنا موظفين فى النادى .

ومرة أخرى استغرقوا فى الضحك حتى شخط فيهم الشيخ رمضان مؤذن المسجد :

– يا أولاد الشياطين احترموا بيت الله !

ولكن أولاد الشياطين لم يعبأوا بتهديده ، فماذا يفعل بهم هذا الضرير العجوز ؟

وعادوا يتحادثون بلا ضحكات مجلجلة :

– فاز بها رجب وابن جمالات !

– رجب هو الموظف بحق حتى ولو لم تكن هناك فوانيس ؟

– ضحك علينا ابن اللئيمة .. قال لنا ماذا يهمنا من أمر النادى وفاز به وحده .

– الفائز الحقيقى « ابن جمالات » لو فعلها شريف بن عباس بك وأخذه معه الى القاهرة !

– بولوا على قبرى لو تحقق شىء من هذا كله : انارة الفوانيس أوازالة السباخ ، أو ..

– وهل سيكون لمثلك قبر يا ابن المركوب ؟

– القبر هو ما يتساوى فيه الناس فى الزهايرة وفى غيرها فلماذا

– لماذا لا نسأل رجب الصعيدى عن حقيقة هذا كله .. ؟ واذا لم تكن لديه أخبار فسوف تكون فرصة لنضحك عليه أو يضحك علينا !

كانوا لا يصدقون ، ولكن شكهم نفسه كان يشى بالرغبة الكامنة ، فى أن يكون ثمة شىء ، أى شىء يسفر عنه ذلك النادى الذى بدأت فكرته بمشاجرة واستمرت كلعبة ، وانتهت الى بيت تعلوه لافتة ، ويجتمع فيه التلاميذ كل ليلة ، ويضيئه كلوب قوى .. يحلم الناس بأن يمتد الى كل شوارع القرية المظلمة !

كان ذلك أول انجاز فى قريتهم .. وكانت رغبتهم فى أن يعنى ذلك شيئا بالنسبة لهم تعادل شكهم القديم الموروث فى كل شىء تمنوه وفى كل انسان علقوا برقبته أمنية !

– ٢٤ –

قال شريف لأحمد وهو ينظر فى ساعة يده :

– ماذا يعنى تأخر « صبرى » الى هذا الوقت ؟

– لا أعرف .. ربما طرأ فى الفيط ما أجبره على التأخير، لكنه وعدنى بأن يعود مبكرا لنتغدى معا ..

قال شريف بمرح :

– وهل سنبقى بدون غداء حتى يعود هذا الوغد ؟

– لا .. سوف نتغدى الآن .. ويأكل هو حين يجىء !

قال شريف وهو ينقل نظره بين سقف الحجرة الخشبى وصورة معلقة على الحائط للحاج ابراهيم :

– لم أتخيل أن يلجأ صبرى لهذه الطريقة للاعتذار عن العودة الى النادى !

– لا أظنه تأخر لهذا السبب .. كان حريصا على أن يوضح لك فكرته بنفسه ، وكما قلت لك هو مستعد لأن يعود للمشاركة فى اللعب فقط !

– لا أفهم هذه الفزورة ثم أضاف :

هناك نوع من الخلل لا أدريه ، يوجد فى رأسك وفى رأس صبرى.

– حين يأتى سيوضح لك فكرته أما الآن فيجب أن نتغدى أولا.

وجاء الغداء .. دخلت به صبية مليحة تحمل فوق رأسها صينية نحاسية صفراء رصت فوقها الاطباق بعناية ، أطباق من الصينى تفوح منها روائح الطعام وابخرته .. دجاج محمر وشوربة وخضار باللحوم والصلصة .. عاون أحمد الصبية فى انزال الصينية من على رأسها لتوضع فوق منضدة مستديرة بحجمها تقريبا .. !

ورغم انشغاله بهذه المهمة لم تخف عنه تلك النظرات التى

تبادلتها « هنية » مع شريف ، أهى نظرات فضول أم تعرف ؟ وجه الصبية يضج بالدماء الحارة ، وبسمة لا سيطرة لها عليها ...

قال شريف الذى أذهلته كمية الطعام المقدمة لشخصين :

ـ ما هذا ؟ أهى وليمة ؟

ثم أضاف بعد أن خرجت الفتاة التى حملت الطعام .. مشيرا بعينيه الى الباب :

ـ أهى قريبتك ؟

ضايقته جرأة شريف ، وطريقته فى السؤال .. تذكر سخرية نجوى منه ، وعجزه عن رد الاهانة وعن التخلص من حبها .. !

ومع انه كان يود تجاهل سؤاله الا انه وجد نفسه دون أن يدرى حريصا على أن يقول له بتأكيد :

ـ لا ...

ثم أضاف بنبرة تشى بضيقه :

ـ تعمل عندنا ..

ـ خادمة ؟

ـ تساعد أمى فى شغل البيت !

ـ حظك من السماء !

تجاهل أحمد تعليقه وقال :

ـ والآن يمكنك أن تملأ بطنك !

ـ يابنى هذا طعام يملأ معدة فريق الأسد المرعب كله !

فكر « أحمد » فى الطريقة التى اهتمت بها الاسرة كلها بهذه الزيارة ، كيف عادت أخته فتحية تذكره بالموضوع الذى كان قد نسيه أو تناساه ، كيف جاء أبوه بنفسه ليجلس مع شريف ويرحب به ، صبرى وحده هو الذى سخر بهذه المظاهرة وذهب الى الحقل شبه ضائق بهذا كله .. ووجد أحمد فيما قاله شريف أخيرا القشة التى يتعلق بها ليغير مجرى الحديث الذى فوجىء به ، قال وهو يكسر الدجاجة بيديه رغم وجود السكين والشوك :

ـ يبدو ان فريق الأسد المرعب لن يبقى منه سوى الاسم !

ـ واهم أنت .. كنت أعتقد ذلك مثلك ليس بسبب كلام الناس عن فلوس المباراة ... بل قبل ذلك بكثير .. وبالمناسبة لم يعد

هناك أحد يتكلم فى هذا الموضوع ..

ـ كل أولا .. ألم تشبع من الكلام منذ جئت ..

ـ لا .. لا أشبع من الكلام .. وخاصة مع مثل هذا الطعام الذى يفتح الشهية لكل شىء !

والتهم شريف قطعة من صدر الدجاجة ثم عاد يتكلم ببطء كمن تذكر شيئا كان يجب أن يتكلم عنه منذ وقت بعيد ...

ـ فى البداية كنت أتسلى .. سحرتنى الحقول الخضراء حول الهدار .. وأحببت أن أحتفظ بها فوق لوحة آخذها معى .. ثم شففت بك .. هذه الشهادة قديمة لا علاقة لها بالطعام رغم روعته

ثم أضاف بعد أن ذاق الشوربة :

ـ هذه الشوربة لا نظير لها .. ! لماذا لا تأكل ؟

قالها شريف وكأنه صاحب البيت :

ـ يروق لى منظرك وأنت تأكل وتتكلم بنفس الكفاءة !

ـ لا تروق لى خيبتك فى كلا الأمرين !

انصرف أحمد الى الطعام بينما استطرد شريف :

ـ سحرتنى الزهايرة كلها .. وبالأخص حين بدأت تقاوم رغبتى فى الاقتراب منها .. سحرنى الرفض والقبول معا .. المسألة سهلة حين تحب امرأة ، أما حين تحب بلدا ؟

ـ أعتقد ان قصة حبك كلها سوف تنتهى بغلق النادى ، وبداية العام الدراسى !

ـ كنت أظن ذلك ؟ ولكن بم تعلل تعلق الكبار والصغار بالنادى الآن ؟

ـ ضحكت عليهم ، غررت بهم ، أوهمتهم ان النادى سوف يحقق لهم كل شىء تمنوه !

ـ هكذا تبدأ كل قصص الحب ، ربما بالرغبة من جانبنا فى تأكيد الذات .. ثم نحب المرأة التى استجابت لنا .. نحب الحب الذى صنعناه !

ـ أو نملها ؟

ـ هذا يتوقف عليها ، ويتوقف على طريقة حبها لنا ... لو جعلت من هذا الحب طريقا لتأكيد ذاتها أيضا .. ربما بقى الحب!

دخلت الصبية المليحة تحمل قلة ماء فى يد وكوبا من الزجاج فى اليد الاخرى ، على وجهها نفس الابتسامة التى لا تتحكم فيها ، وغمغمت بما يشبه الاعتذار عن نسيانها لاحضار الماء .. !

سأل شريف وهو يمسح فمه بطرف الفوطة :

– ماذا تفعل مع هذه البنت الحلوة ؟

– لا شىء .. انت مجنون !

– انت المجنون لو لم تفعل معها شيئا ؟ لو كانت تعمل عندنا لأشبعتها حبا .. !

– لى فتاة أحبها حقا ، ولكنى لا أحب أن أكلم عنها سافلا مثلك لا يفهم حقيقة الحب !

– وهذه .. ألا تحبها ؟

– لا يمكن أن أحب مثل هذه الفتاة !

– أليست بينك وبينها علاقة من أى نوع ؟

– لا ..

قالها أحمد بنبرة من يريد أن يقفل الحديث فى هذا الموضوع !

قال شريف بعد أن أفرغ كوبا من الماء فى جوفه :

– لم نصبح بعد أصدقاء ياصديقى ؟ وليس من حقك أن تتكلم بعد ذلك عن الصدق الكامل والصداقة الكاملة أحيانا .

– ماذا تعنى ؟ .. قالها أحمد بجزع

– أعنى انى أعرف علاقتك بها جيدا !

قالها شريف ببساطة مذهلة :

– من الذى قال لك هذا الكلام الفارغ ؟

– انسان له معها مثل علاقتك ! هى التى قالت له .. !

– من ؟ ..

– المسألة لا تختلف .. ربما كنت أنا ، أو حتى رجب الصعيدى أو أى تلميذ آخر !

– انت كذاب .. حتى لو كان ذلك صحيحا فلا تقول بنت عن نفسها هذه الاشياء .

– انت ساذج واهبل .. هى لا ترى المسألة بطريقتك ، انت نجعل من الحبة قبة ، هى تزهو بما تخجل انت منه ...

– . . . . .

– لماذا تزعجك هذه المسألة التافهة ؟ لو كنت أعرف انها ستؤلمك هكذا لما تحدثت معك فيها .. ؟

– قل لى أولا .. من الذى قال لك هذا الكلام ؟

– اعتقادك ان هذا هو السؤال المهم .. يؤكد ان فيك ذلك الخلل الذى لا أعرف كيف أحدده ؟ والذى يبدو انه من خصائص عائلتكم الكريمة ... فصبرى ..

آنذاك دخل الحاج ابراهيم بوجه مشرق متهلل وجلباب حريرى أبيض واسع ، كان قد قام بواجبه فى استقبال الضيف ، ثم تركه مع ابنه ليتحدثا ويأكلا بحرية ، ثم عاد قرب النهاية ليكون فى وداعه كما تقضى تقاليد القرية ثم بدا وكأنه فوجىء بعدم وجود صبرى فقال :

– كيف لم يعد صبرى ليتغدى معكم ؟ أهذه هى الاصول ؟ لم يكن هناك ما يدعو لذهابه الى الغيط أو بقائه هناك ؟

وضاق صدر أحمد بكلام أبيه ، كما ضاق أكثر بجلوسه واصراره على مواصلة الترحيب بشريف ، الذى راح يحادث أباه عن النادى وعن ضرورة بقائه بجهود أهل القرية أنفسهم ليصبح وسيلة القرية لكى تخدم نفسها بنفسها ..

- ٢٥ -

لم تعرف الزهايرة مثل هذه الايام ، لم تعرف مثل هذا القلق، ومثل هذا الأمل ومثل هذا الخوف ، ومثل هـذا الفرح ، ومثل هذا الشك ...

كانت الزهايرة دائما كما رآها أحد أبنائها هى ذلك الفرد الوحيد الحذر الخائف المتوجس سواء من خلال قوته أو من خلال ضعفه.. وفى المرات القليلة التى كان يحطم فيها هذا الفرد اطار عزلته .. ويصبح جماعة ، فى أيام الأعراس ، والموالد ، والانتخابات ، وحتى فى أيام الـكرة .. كان ما تشعر به هذه الجماعة هو ذلك الجيشان العاطفى الذى كان يجعل قوة هـذه الجماعة تتجه دائما الى شىء خارجى ، « مقام ولى من أولياء الله تعلق عليه الآمال وتتجه اليه دعوات المظلوم والظالم ! » .

مرشح هو غالبا « عباس بك الموارى » تؤازره بالعصبيـة ، وتعادى غيره لنفس العصبية ، وتحلم فى كل مرة بأن على يديه قد تتحقق بعض الآمال !

« كرة سريعة مستديرة مراوغة تندفع من قدم الى قدم .. وتندفع معها الى قلوب الناس مشاعر لايمكن الامساك بها كالـكرة .. يرتفع بها ذلك الجيشان العاطفى الذى لم تجربه الزهايرة بهذه الحدة .. والذى يبدو انها سكرت به بعض الوقت وحين أفاقت وجدت هـذه الـكرة قد تحولت الى بيت تعلوه لافتة سوداء كتب عليها « النادى الرياضى الثقافى بالزهايرة » ، ويجتمع فيه التلاميذ وغيرهم وفى الليـل يضيئه كلوب قوى يحلم الناس بأن يمتد نوره الى كل شوارع القرية وحاراتها المظلمة ... »

ومنذ ذلك الحين والزهايرة تشعر أن القوة التى انطلقت منهـا هـذه المرة ترتد اليها من ذلك البيت الذى لم يكن يراه أحد حين

كان يسكنه « على افندى الاسيوطى » .. الآن أصـبحت تسكنه العفاريت التى ترمى لهم بهذه القوة .. بهذا الجيشان .. ليفعلوا به ما يريدون .. ليفعلوا به أى شىء سوى أن يتركوه يتبـدد ويضيع .. !

كان التلاميذ الذين أطلقوا هـذه القوة يعدون حقائبهم ليعودوا الى مدارسهم وكلياتهم !

وكان يبدو أن هـذه القوة قد عصفت بصفوفهم فلم يكن يجهل حتى الحاج ابراهيم ان علاقة ابنه بالنادى أو بشريف يشوبها شىء رغم دعوته له للغداء فى بيته .. فلم يكن يفهم لماذا لم يعد أحمد يتردد على النادى ؟ ولم يكن يفهم لماذا لم يحضر صبرى ليتغدى مع شريف رغم شعوره براحة غامضة لعدم حضوره ، وكان سمير ابن الشيخ عرفه المـأذون هو الذى أصبح يصـــول ويجول فى النادى ، وهو الذى جمع بعض التبرعات من الاهالى ليكمل ثمن الفوانيس ، وكان هو الذى اشتراها من السنبلاوين ووعد بأن يلقى محاضرة فى النادى أمام أهالى الزهايرة عن مغزى اتفاقية الجلاء التى كانت قد وقعت كما شرح لهم فى معسكر أبى قير للحرس الوطنى.. أن يلقى هـذه المحاضرة .. فى نفس الليلة التى تضاء فيها القرية بالفوانيس ...

وكان هو الذى أعلن ان صندوق النادى قد فرغ وفى حاجة الى نقود جديدة حتى تعلق الفوانيس وحتى يكون هناك من يمدها بالغاز وينيرها فى كل ليلة لتبقى مضيئة .. !

وكان « خيرى » هو الذى اقترح اقامة مبـاراة جديدة تكون حصيلتها دعما للصندوق .. ومن جديد أثار اقتراحه مخاوف الزهايرة وعشقها للـكرة ، واصطدمت مخاوف الـكبار من الـكرة بحبهم وحب الصغار لها ... واصطدمت شكوكهم فى قدرة الـكبار على الخروج من فرديتهم ومواصلة التبرع للنادى .. برغبتهم فى بقاء النادى بدون كرة ليكون دليـلا على ان الـكبار فى الزهايرة لا يقلون عن الصغار قدرة على خدمة قريتهم .. !

كان نجاح التلاميذ قد أحرجهم ، وكان غلق النادى بعد سفرهم، وبقاء الفوانيس مطفأة يمثل تحديا لهم .. كانوا يتكلمون عن شراء

دلو للحريق ، ومذياع فى النادى يسمع له من لا يمتلكونه ، و..!

والغريب ان من يتكلمون الآن هم أولئك الذين لم يصنعوا شيئا من البداية .. !

ولو قدر لقلب رجل واحد أن يتسع لما تخفق به قلوب الناس فى الزهايرة فى تلك الايام من الأمل والخوف والشك والفرح لكان هو قلب الحاج ابراهيم !

وكان الرجل الوحيد الخائف الحذر المتوجس الذى كانته الزهايرة .. والذى حطم ذات لحظة اطار خوفه وعزلته .. وافزعه أن يجد نفسه خارج هذا الاطار ، ولا يعرف ماذا يفعل بهذه القوة التى خرجت منه ، من تجمعه ، كأن هذا الرجل قد أصبح هو الحاج ابراهيم نفسه .. فقد كان هو اكثر من يعانى من عودة الكرة بجنونها واحتمالاتها ، وينتظر بفارغ الصبر عودة الدراسة ويعانى من عجز النادى أو افلاسه بدون كرة !

ودائما يسأل نفسه أو غيره ، لماذا يتردد الناس فى التبرع للنادى بدون كرة بينما يدفعون بلا تردد بأنفسهم أو لأولادهم حينما تكون هناك كرة يصر الجميع على رؤيتها ومع ان الزهايرة ثرثرت كثيرا فى موضوع فلوس المباراة ، ثم سكتت عنه فجأة كما تكلمت فيه فجأة ، فلم يجرؤ أحد من الصغار أو الكبار أن يثير اتهام الناس لأحمد أمام أبيه ..

ولهذا فقد بقى حماس الرجل للنادى بريئا وصافيا ، وبقى استقباله لمن يتكلمون عن النادى بحب أو خوف أو ازدراء محايدا ، وراغبا فى أن يلتمس وسط الخيوط المتشابكة ذلك الخيط الذى يمسك بهذه القوة حتى لا تضيع أو تنفجر فى أحد !

الخيط الذى يبدأ وينتهى بهذا السؤال : هل يمكن أن يبقى النادى بدون كرة ؟

***

وفى هذه الايام التى لم تعرف الزهايرة لها مثيلا عاد محمد الجندى فجأة كما سافر فجأة .. عاد فى سيارة أدخلته لعتبة الباب ، قال الذين رأوه بعيونهم : كان يتوكأ على رجلين ، وساقه المربوطة بالجبس لا تكاد تلمس الارض .. وعرفت الزهايرة ان

رجلها الغامض المرهوب قد أصيب فى آخر عملية اشترك فيها مع الفدائيين .. !

ولم يفهم أحد لماذا يتجدد قتال الفدائيين بعد توقيع المعاهدة.

وفكر تلميذ أن يوجه هذا السؤال لسمير فى الليلة التى سيلقى فيها محاضرته بالنادى عن مغزى اتفاقية الجلاء !

وقال له تلميذ آخر :

ـ ولماذا لا نذهب لزيارة « محمد الجندى » ونوجه اليه هذا السؤال ؟

وتدفقت الزهايرة على منزل محمد الجندى تزوره وتسأله .. ولم تعد هناك أسوار تفصل بين عائلة الجندى وأهالى الزهايرة.. كان محمد الجندى هو أول من قفز فوق هذه الاسوار فى صباه ، وحين أصبح عاجزا عن القفز ذهب الناس اليه ، سألوه عما أصابه؟ وسألهم عما أصاب النادى ؟

تكلموا عن الخوف والأمل والفرح والقلق .. عن الفوانيس والجرادل ، وتنظيف القرية ، والكرة ، والفلوس .. زاره شريف وصبرى وأحمد ورجب الصعيدى وعطية بن جمالات وسمير وخيرى وزارته حتى نجوى .. كانت تربطها بشقيقته صلة صداقة وكانت شقيقته هى التى تزورها دائما دون أن تنتظر ردا للزيارة ، وتحكى لها عن أخيها بعض الفرائب ، وحين أصيب ، وجدت نجوى الفرصة سانحة لترى بعينيها حقيقة من تسمع عنه الاساطير.. !

وعبثا حاول محمد الجندى أن يجد الفرصة ليروى لأحمد فى المرات التى زاره فيها حقيقة ما حدث فى تلك الزيارة التى جاءت فيها نجوى .. دائما كان هناك ضيوف ، وكانت هناك أحاديث عامة تلوكها الزهايرة لا تترك فرصة لتبادل الهمس بين صديقين .. !

كان كلاهما يعانى من جراحه ، ومما أصابه فى غيبة الآخر ..

وكان أقسى ما أصاب أحمد انه عرف بخبر زيارة نجوى لمحمد الجندى دون أن يعرف أى تفاصيل !

وأصبحت رغبته فى أن يعرف التفاصيل لا تقل ضراوة عن خوفه من أن يسمعها .. ؟

وتراجعت الى الوراء رغبته فى أن يروى أو يسمع المزيد عن

قصة فلوس المباراة وكيف سمع بها محمد الجندى من الزهايرة .. أو عن القصة الكاملة لما أصاب محمد الجندى فى معركته مع الفدائيين .. !

لم ينقم أحمد على الزهايرة .. على وجودها بهذه الكثرة .. وبهذا الاستمرار فى بيت محمد الجندى كما نقم عليها فى تلك الايام!

كيف تتآمر قرية بأسرها على لقاء صديقين ؟ ومتى تنتهى تلك الايام ؟

كان اليوم الذى حدده التلاميذ فى النادى فى لحظة متفائلة لانارة الفوانيس ، ولكى يلقى سمير محاضرته الموعودة عن مغزى اتفاقية الجلاء .. يقترب ..

ولم يكونوا قد حلوا بعد مشكلة النقود !

وكانت الزهايرة فى تلك الايام تترنح من القلق والنشوة والكلام ، وتبدو وكأنها توشك أن تغيق أو تسقط ، تصحو من حلمها أو تحققه . وفكر أحمد فى لحظة غيظ أن يذهب الى النادى فى تلك الليلة الموعودة لو أنها جاءت فى موعدها ليناقش سمير فى محاضرته المرجوة .. ليحطم بالعقل ذلك النادى الذى أوجدوه بالكرة ، والذى يصر على أن يبقى بدونه .. سوف يسأله سؤالا واحد :

ـ لقد وقعت الاتفاقية وانتهى الامر فما جدوى الحوار الآن ؟

وراح يتخيل الاجوبة والاسئلة :

ـ ليفهم من لم يفهم ! وليقتنع من لديه ذرة شك .

ـ واذا لم يقتنع من تريد اقناعه ؟

ـ يكفى اقتناع الاغلبية !

ـ وكيف عرفت رأيها ؟

ـ الاغلبية تؤيد الثورة .. هل تنكر ؟

ـ فى أى شىء ؟

ـ فى طرد الملك ؟ فى اعلان الجمهورية ؟ .. فى تحديد الملكية ..

ـ الموافقة على شىء أو أشياء .. لا تعنى الموافقة على كل شىء لا تعنى التفويض المطلق ..

ـ اذا أعطيت حق المعارضة فى أمر فلا بد أن تعطيها فى كل الامور .. اعط حق المعارضة للاقطاعيين فى تحديد الملكية ،

وللملكيين فى اعلان الجمهورية .. وسوف ينتهى بك الامر الى حق معارضة الثورة ..

ـ كيف تكون هناك ثورة دون تفويض مطلق ؟ وكيف تكون هناك معارضة دون أن تلغى الثورة ؟ أيمكن أن يناقش مع مثل سمير مثل هذا السؤال أمام الزهايرة دون أن يقع فى نفس المأزق الذى وقع فيه شريف فى مسجد الزهايرة ؟

وكان الحاج ابراهيم لايزال يسأل نفسه ويسأل كل من يلقاه من الرجال الكبار كيف يمكن أن يبقى النادى بدون كرة ، وأن يتبرعوا دون ضغط الصغار والكبار وضعفهم أمام اغراء الكرة ؟

ولم تكن الزهايرة قد حسمت أمرها حين وصلت الى النادى الذى شاع أمره وذاع رسالة صغيرة من فريق السنبلاوين تقول :

« السيد المحترم رئيس نادى الزهايرة الرياضى ..

تحية طيبة وبعد :

يسرنا أن ندعو ناديكم ليلعب مباراة مع فريقنا فى مدينة السنبلاوين يوم الجمعة الموافق ١٠\٩\١٩٥٤ .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام » .

وكأنما كانت تلك الرسالة هى القشة التى تنتظرها الزهايرة لتنجو أو تغرق !

وانفجر الجدل فى النادى ، وفى مسجد الزهايرة وأمام دكان الخلفاوى ، وفى الطريق الى الهدار:

ـ هذه فرصة العمر ليتجمع المتفرقون ، ويظفر صندوق النادى بحصيلة تكفى لانارة القرية وشراء جرادل لحمايتها من الحريق ، و . . .

ـ نسيتم اننا أحرزنا النصر فى المرة السابقة بفضل ضيوف شريف .. ؟

ـ لا تهمنا نتيجة المباراة ، تهمنا الفلوس ..

ـ لن تحصلوا على مليم واحد اذا لعبتم فى السنبلاوين ..

ـ نعتذر عن اللعب فى السنبلاوين ، فاذا قبلوا الاعتذار تكون فرصة للنجاة من الهزيمة واذا قبلوا المجىء تكون فرصة للفلوس!

وصرخ الحاج ابراهيم فى الرجال الكبار :

ـ أولادنا هم الذين سيدفعون ثمن التذاكر من جيوبنا .. لماذا لا نتبرع بها للنادى ونريح البلد من هذه المغامرة ؟

ولأول مرة أصر الرجال على معارضته بلهجة هى مزيج من الجد والهزل :

ـ أية مغامرة ياحاج ؟

ـ ليس أولادنا هم كل الاولاد فى البلد !

ـ ثمن تذكرة أو عدة تذاكر أهون من أن يتبرع كل واحد منا بجنيه أو جنيهين !

ـ أهم من كل هذا ، نريد أن نتفرج على مباراة حقيقية .. ستكون آخر مباراة وكل سنة وانت طيب !

ـ ٢٦ ـ

من جديد التأم شمل الزهايرة حول الملعب .. !

عباس بك فى مكانه وحوله الرجال الكبار.. «رجب الصعيدى» قام بدوره كاملا ومبهرا منذ بداية النهار ! شريف وصبرى وعطية أين جمالات لبوا جميعا سحر الكرة ، ونداء الزهايرة فى هذا اليوم المشهود !

سمير هو الذى يبيع التذاكر هذه المرة .. وهى أكثر من كل الحاضرين والغائبين .. فلم يكن اليوم يوم عيد ولم يكونوا فى حاجة الى شجرة سنط تقفل مدخل الجرن ولم يكن محمد الجندى قادرا على حملها ..

كان قد جاء متوكئا على عصاه وعلى كتف « رجب الصعيدى » الذى أصر على أن يذهب بنفسه ويجىء به معه !

وكان أحمد فى مكان لايلتفت اليه أحد وسط الزهايرة التى لم تكن تلبس فى هذا اليوم ثياب العيد !

وفيما عدا الصف الاول الذى يجلس فيه الرجال الكبار كان الصغار والكبار قد جاءوا من حقولهم قبل نهاية النهار.. بعضهم جاء بثياب الشغل القديمة والمهلهلة ... فأسه على كتفه وبقايا عرق مختلط بالتراب على الجبين واليدين والقدمين ، بعضهم القى بالفأس جانبا .. والآخرون اجتذبتهم الكرة فنسوها على أكتافهم! كيف دفعوا ثمن التذكرة ؟ بعضهم هده تعب النهار فجلس على الارض ، وبعضهم ظل واقفا يتابع الكرة المستديرة بما بقى فيه من حماس ، وبما يولد فيه من حماس جديد ! « نجوى » تجىء هى الاخرى .. بعد بداية المباراة يجرى « رجب الصعيدى » ليحضر لها كرسيا من السراى ويترك لها « محمد الجندى » كرسيه ولكنها ترفض بشدة ، وتجلس بجواره على الكرسى الذى تركه

احد الرجال الكبار للهانم الصغيرة !

ربما لم يبصر أحد سوى أحمد هذا المشهد بهذه المرارة .. محمد الجندى ونجوى يتكلمان ويضحكان ويتفرجان .. والزهايرة تصبح من جديد ذلك الحيوان الخرافى الذى يمتلك ألف قدم وألف ذراع .. وفى مكان الرأس كرة ملأى بالهواء ، الكرة هذه المرة فى أقدام فريق السنبلاوين يتلاعب بها وبفريق الزهايرة الذى لاينجح الا فى تشتيتها حينا وفى الامساك بها فى أحيان قليلة ..

الحيوان الخرافى يشعر كأن فريق السنبلاوين يضرب رأسه بأقدامه .. يتلاعب بهذا الرأس ، يسيطر عليه ، يقذف به الى الهواء أو يمرغه فى التراب ! ولكنه لايتركه يتحرر منه الا حين يقذف به فى قلب جول الزهايرة !

وتمسك الزهايرة برأسها حتى لاينفجر .. تتوسل بالصياح والذهول لفريق الأسد المرعب لكى ينقذ رأسها المصدوع .. تتوسل لشريف وصبرى وعطية بن جمالات .. ولكن الأسد المرعب يصبح أسد سيرك محاصرا بين قضبان غير منظورة فى نصف ملعبه ويوشك أسد السيرك أن يتحول الى قط ثم الى فار .. ويخيم الذهول على الزهايرة من توالى الاهداف ويوشك الرأس الكرة أن يتمزق .. !

وفجأة يفلت شريف من القفص والى جواره عطية بن جمالات فى لحظة ظن فيها فريق السنبلاوين ان الفار لن يفكر فى الهجوم أو حتى الهرب !

ويحرزان هدفا تجن له الزهايرة ! ولكن هذا الهدف يثير فريق السنبلاوين الذى كان قد قنع بما أحرز من أهداف واكتفى باستعراض ألعابه فعاد يشدد الهجوم ويحرز الاهداف !

وترتفع فى جنبات الملعب أصوات أهالى السنبلاوين الذين رافقوا فريقهم بتشجيعه والهتاف له !

ومع قلتهم فقد أصبح صوتهم هو المسموع فى الملعب كله ! متى تنتهى هذه المباراة ؟ هذه المهزلة .. ؟ وتصبح المشاعر المحتدمة المختلطة فى قلب الحيوان الخرافى شعورا واحدا لا أول له ولا آخر شعورا بالمهانة والحزن .. ينفصل هذا الشعور عن الكرة لانها

توشك أن تنفصل عن أقدام فريقهم لايتحرك بحركتها ، ولا يتغير ايقاعه بتغير مسيرتها وعلى جوانب الملعب تبدأ مباراة من نوع آخر بين بعض أهالى الزهايرة وأهالى السنبلاوين .. مباراة بالكلمات التى لا تشد انتباه أحد فى البداية !

ـ تكفى فى النصف الاول من الوقت نصف دستة من الاهداف .

قالها رجل من السنبلاوين لزميله ..

ـ العبرة بالختام ..

قالها رجل من الزهايرة كان يقف بجواره ..

ـ آخرها مثل أولها باذن الله ..

ـ غلبناكم فى المرة السابقة ..

ـ صدقتم هذه الحكاية .. ؟

ـ انت قليل الادب !

ـ تشتمنى يا فلاح ..

ـ وأضربك بالحذاء !

ـ تستقوى بأهل بلدك !

ـ لن أضربك هنا .. سأضربك فى سوق الخميس ..

ـ الافضل أن تشترى حذاء من هناك !

ـ سأضربك بهذه هنا.. وارتفعت الفأس فى الهواء ، وبدأ الشجار

كان محمد الجندى هذه المرة عاجزا عن أن يحقق المعجزة أو يحسم المأساة ... وأسرع عباس بك بولديه الى السراى .. بعد أن ضاع صوته وسط الجنون وسقط منظاره الذهبى .. وضاعت فردة حذائه .. !

ووقف الحاج ابراهيم وحوله الرجال الكبار يصرخون ويحاولون أن يمنعوا المأساة ، ولكن الشجار ينفض هنا ليشتعل هناك ، المأساة التى كان يحذرها الجميع تقع رغم كل المحاذير ! رأى أحمد بعينيه كيف يجن الناس ؟ وكان قد بقى فى رأسه بقية من عقل جعلته يسأل نفسه رغم الخوف والهول سؤالا بلا جواب ..

ما هذا الذى يجرى ؟ لماذا لا تستخدم الزهايرة قوتها الا بهذه الطريقة ؟ لكى تدمر كل شىء بلا تمييز ؟ أبوه فى خطر حقيقى.. بينما لا يدرى هو ماذا يفعل ؟ عاجز ومشلول وخائف .. محمد

الجندى يصرخ ويلوح بعكازيه دون جدوى .. النسوة يصرخن فوق أسقف المنازل المجاورة ، ويوشك صوت الحاج ابراهيم أن يضيع وسط الاصوات وهو ينادى اهالى السنبلاوين لكى يجتمعوا حوله.

ـ أنا مسئول عمن يقف بجوارى .. سأحميه بدمى ..

ظل الحاج ابراهيم يصرخ بهذه العبارة حتى ضاع صوته .. ضاع العقل .. وسكنت الكرة فى مكان من جرن الوسية .. لايراها أحد .. ! الكرة التى كانت تقود بحركتها هذه القوة الغامضة ، انفصل رأس الحيوان الخرافى عن جسده .. لاعبو السنبلاوين كانوا أول من التف حول الحاج ابراهيم .. كانوا أول من سمع الصوت الضائع ، وحولهم التف بقية أهالى السنبلاوين بعضهم ثيابه ممزقة ، وبعضهم جلده ممزق .. ! بعضهم يقف وبعضهم لا يقوى على الوقوف ، وحول الجميع وقف الرجال الكبار ليصنعوا حاجز أمن للغرباء ، وكأنما أدرك الضيوف فى لحظة الجنون التى سادت الملعب انه لا منجاة لهم من تقاليد القرية الا بتقاليدها، أركبهم الحاج ابراهيم فى العربات التى جاءوا فيها ، انحشروا فيها جميعا .. من جاء راكبا ومن جاء ماشيا ! وركب معهم على افريز العربة ، سألهم قبل أن يعود :

ـ هل تخلف منكم أحد ؟

ولم يكن هناك من يجيب ، أو يتذكر !

***

عاد الحاج ابراهيم الى القرية وحده .. كيف حدث ما حدث ؟ كيف تركوا الكارثة تقع رغم انهم كانوا يخشونها ويتوقعونها ؟ « لا يفنى حذر من قدر » ، رأى على البعد جماعة من الرجال يخفون للقائه .. لعلهم خافوا عليه من أهالى السنبلاوين .. كان الحاج حبيب اكثر منه حكمة وحذرا .. كيف ضعف أمام أولاده .. ترى هل أصابهم شىء .. ؟ لايزال للحساب بقية .. ؟ يكفى أن تكون للمصيبة حدود ؟ ولكن ملامح الرجال التى تقترب لم تكن تبشر بالخير .. كانت تغطيها سحابة من الغبار ، وحين اقتربوا منه .. وحين انجلت السحابة سألهم بقلب مخلوع :

ـ ماذا حدث ؟

ـ خفنا عليك ؟

ـ من أى شىء ؟

ـ رجل من أهالى السنبلاوين ..

ـ تأخر عنهم ؟

ـ وجدناه فى جرن الوسية ..

ـ مصابا ؟

ـ ميتا ؟ ..

- ٢٧ -

فى تلك الليلة لم تنم الزهايرة ...

كانت تلك هى نفس الليلة الموعودة التى ظلت تنتظرها الزهايرة طويلا لتضيئها الفوانيس ، وليلقى فيها سمير محاضرته عن مغزى اتفاقية الجلاء ! ساد فيها الظلام وساد الخوف ، وراح كل الآباء والأمهات يتفقدون أولادهم وطيورهم ومواشيهم ، ويغلقون عليهم الابواب فى انتظار ما يسفر عنه الصباح من رزايا ومصائب لا يعلم حدودها الا الله !

***

حين وصل الخبر المشئوم الى الحاج حبيب الذى كان قد صمت صمته العظيم منذ أسابيع ، حين تأكد له ان ما كان يخشاه قد وقع ، لم يعد لديه شك فى سلامة تفكيره ، وفى ان الدنيا التى عرفها لا تزال كما هى ، ولا تزال فى حاجة اليه ! قال لمن أخبروه بالخبر :

ـ احملونى اليهم !

وذهل من سمعوه ، كانت تلك أول مرة يتكلم فيها الرجل الذى كانت ترتعش الكلمات على شفتيه .. يتكلم بوضوح .. وبحسم!

ـ هم يجيئون اليك .. فأنت لا تقدر ..

ـ أين هم ؟

ـ فى سراى عباس بك !

ـ كل الرجال ؟

ـ نعم ..

ـ اذن احملونى اليهم .. وسأقدر !

***

فى جرن « عباس بك » الذى شهد المباراة والمأساة كانت تتمدد

جثة شاب فى العشرين تقريبا مغطاة بالقش ، يرتدى جلبابا ملطخا بالجير والبوية كما كانت بقايا الالوان تلطخ شعره وأصابعه . قال الذين عرفوه من أهالى الزهايرة :

ـ لا نعرف اسمه ولكننا نعرف اسم أبيه الذى مات من سنين .. كان نقاشا بالسنبلاوين وورث الابن مهنته .. ودائما كنا نراه معلقا بجردله على واجهات البيوت والمحلات .. !

وأوضحت ثيابه وملامحه .. انه شاب فقير ..

وقال الشيخ عرفه لمن حوله من الرجال الكبار :

ـ يمكن ارضاء أهله .. لو وجدنا له أهلا ، بأى مبلغ من المال ، لكن تبقى مصيبة الجثة ؟ ماذا نفعل للحكومة وللنيابة ؟

وكانت كلمة الحكومة لا تفزع أحدا بقدر ما تفزع « عباس بك الموارى » فالجثة فى جرنه .. وخصومه القدامى من رجال الادارة قد يجدون فيما حدث فرصة العمر للانتقام منه ، وأصدقاؤه من بينهم قد يجدون الحرج فى الوقوف بجانبه فى مثل هذه الظروف وقد تأخذ الحادثة كلها معنى سياسيا ، فماذا يفعل ؟ بل ماذا يفعل الابناء بالآباء ؟

***

الابناء فى هذه الليلة عادوا أبناء فحسب ! فى الليالى القمرية .. وفى الطريق الى الهدار يمكنهم أن يتكلموا فى كل شىء تحت الشمس والقمر ! أن يتفلسفوا ، وأن يتحملوا مسئولية الكون ! لكن حين تقع الكوارث ، ويسود الخوف فى الليالى المظلمة ، فانهم يعودون مجرد أبناء .. يتركون الامور لآبائهم ، ويقبعون فى الاركان يحطمهم الشعور بالعجز والهوان .. !

لم يكن ما يحطم محمد الجندى فى تلك الليلة هو الشعور بالعجز والهوان .. ولا حتى الشعور بالمسئولية .. !

فلم يكن ينتمى الى جيل الابناء ، ولا الى جيل الآباء . كان يجد فى أعماق قلبه شعورا مضنيا بالوحدة والمرارة .. لقد عجز عن أن يمنع بداية المأساة ولم يعد يحب فى نهايتها أن يشارك بالكلام فيما يعرف انه لن يقدر على المشاركة فيه بالعمل !

كان ثمة دور بطولى صغير يمكن أن يقدمه للزهايرة التى بدأت

تعترف به ، ولكنه أفلت منه ! وكانت ثمة أشياء جميلة وقليلة قد بدأت تنمو فى الزهايرة ، ولكنها توشك الآن أن تضيع دون سبب معقول .. ! ولم يكن قد روى بعد لأحمد قصة زيارة نجوى له .. وبدا له ان هذه الليلة سوف تضع حدا لاشياء كثيرة ربما منها هذه القصة .. الرقيقة التى لم يعرف مثلها فى حياته ..! هذه القصة التى قد لا يرويها لأحد أبدا .

***

حين وصل الحاج حبيب الى سراى عباس بك المواردى حيث يجتمع الرجال الكبار للبحث عن طريق للخلاص .. فوجئوا جميعا بوجوده ! وكان الانطباع الذى ظهر على وجوههم هو : كيف جاء ؟ وهل كان ينقصنا فى تلك الليلة هذا العجوز العاجز عن الكلام ؟ لم يكونوا قد وصلوا بعد الى قرار حاسم ، ولم تكن مشكلة الثأر هى ما يخافونه ، فالسنبلاوين مدينة ويبدو أن القتيل لا أهل له يخشون بأسهم ، ولكن المأساة فى الحكومة.. والحكومة يخشاها الاغنياء قبل الفقراء ، فسوف تتهدد الاخطار مصالحهم وكرامتهم!

وأنصتوا جميعا حين بدأ الحاج حبيب يتكلم ببطء وفى صوت خفيض .. أنصتوا فى البداية كأنما ليتخلصوا منه ومن كلامه ، قال لهم :

ـ ما الذى تنوون فعله ؟

وأوضح له الحاج ابراهيم أساس المشكلة !

قال الحاج حبيب بصوت واضح رغم ضعفه :

ـ أساس المشكلة هو وجود الجثة .. ولو تخلصتم منها ؟

وتأكدلدى الرجال ان العجوز يهرف بما لايعرف ! ولكنهم سايروه :

ـ كيف ؟

ـ ألقوا بها أمام الهدار ؟

ـ البلد كلها تعرف الآن بخبر القتيل ..

ـ لايهم أن تعرف البلد أو حتى تتكلم .. المهم أن تختفى الجثة! بدون الجثة لا تملك الحكومة شيئا .. لا وجود للجريمة !

ـ قد تظهر الجثة بعد قليل وتتجدد المأساة ..

ـ القوها فى مكان لا تظهر فيه ..

ـ اين مثل هذا المكان ؟

ـ هذا ما يجب أن تفكروا انتم فيه وبسرعة !

وخيم صمت ثقيل ، فلم يكن أحد الرجال ممن يملكون أرضا ليرضى أن تخفى الجثة فى أرضه .. وسوف تحوم شكوك الحكومة فى أرض المقابر ، وسوف تقلبها بحثا فأين يتخلصون من الجثة ؟ وكيف ؟ ..

وفكر العمدة أن مسئولية اختفاء الجثة الذى لايمكن أن يظل سرا سوف يقع عليه أولا وعلى شيخ الخفراء والخفراء ، فقال بنبرة من يدفع عن نفسه مصيبة :

ـ سوف يوجد مائة شاهد من السنبلاوين على ان القتيل ذهب بقدميه الى الزهايرة ولم يرجع وسوف تطالبنى الحكومة بجثته .

قال الشيخ عرفه :

ـ فى هذه الحالة لن يكون هناك قتيل ...

وقال الحاج حبيب :

ـ اننا نختار بين المصائب .. فوجود الجثة معناه انك مسئول عن القاتل وعن القتيل معا وانك سوف تقع بين نار الحكومة ونار البلد التى ستدفع كلها الثمن ..

والتمس « عباس بك » خيط النجاة فيما قاله الحاج حبيب فهذا يبعد شبح الجريمة عن بيته على الاقل .. فقال :

ـ اذا نجحنا فى اخفاء الجثة ، فسوف تسكت الحكومة بعد وقت يطول أو يقصر ، خصوصا لو أنهينا المشكلة مع أهل القتيل بأى مبلغ !

قال العمدة محاولا وضع العقبات من طريق آخر :

ـ يتفضل الحاج حبيب ويدلنا على من يحمل الجثة ويخفيها فى مكان لا تصل اليه الحكومة ؟

ـ البلد لا تخلو من عقول ورجال .. ولكنى أفضل رجلا واحدا أو رجلين لتنفيذ المهمة حتى لايفشى السر !

وخيم على الحاضرين صمت كئيب وثقيل ، كانوا جميعا قد وجدوا فى فكرة العجوز المخرف طوق النجاة لهم ما عدا العمدة

الذى وضع كل أمله فى عجز القرية عن تنفيذ هذه المغامرة . كان يتوقع ألا يسفر صمتهم عن شىء ، بل عن خلاف عقيم ، فكلما خرجوا بالمكان عن زمام القرية حتى يبعدوا عنهم مسئولية الجريمة أصبحت المهمة صعبة التنفيذ ، فمن يحمل الجثة الى خارج أراضى القرية ؟

وصرخ الحاج حبيب بصوت مرتعش واهن :

ـ ماذا تنتظرون ؟ أهالى السنبلاوين سوف يبلغون عن الحادث قبل أن يذهبوا الى بيوتهم وقبل أن يعرفوا بكل ما حدث ؟

وأضاف عباس بك بصوت نم عن قلقه العميق :

ـ وليس مثل الليل ساترا لما تريدون ..

واستمر الصمت مخيما .. يشى بقهر الرجال .. قال الحاج ابراهيم :

ـ ما رأيكم فى تلال ابن سلام ؟

قالها وغرق الرجال فى الصمت من جديد .. !

قالها وكأنه قد أدى ما عليه باختيار المكان وترك لهم مهمة اختيار الرجل ، فتلال ابن سلام الرملية الشاسعة بعيدة ، والحفر فيها لا يخلف أثرا ، ولن تذهب ظنون الحكومة الى ان شخصا يمكن أن يحمل جثة الى مثل هذا المكان ..

ولكن يبقى البحث عن الرجل .. ولم يفكر واحد من الكبار فى تقديم أحد أبنائه لمثل هذه المغامرة فى مثل هذه الليلة ، ولم يجرؤ أحد على ان يطلب من الآخرين ما لايقدر عليه !

وظل الصمت الكئيب يصرخ بقهر الرجال أمام المصيبة !

ـ أنا مستعد لاخفاء الجثة هناك !

وتطلعت كل العيون اليه .. متى جاء « رجب الصعيدى » ومتى سمع الحوار كله ، وسمع الصمت كذلك ؟

وعاد رجب الصعيدى يتكلم كأنما ليؤكد لهم ما ظنهم فى شك منه!

ـ من أجل الاستاذ شريف وعمى الحاج حبيب اذهب بقدمى الى النار !

وظل الصمت مخيما على الرجال الكبار ولكنه فى هذه المرة كان يعنى شيئا آخر ثم تكلموا ..

وبقى العمدة وحده صامتا لايدرى كيف حلت به وحده هذه المصيبة ؟ كانوا يتكلمون فى الطريقة والتنفيذ ومواجهة كل الاحتمالات

***

حين عاد « رجب الصعيدى » من مهمته ، وجد الرجال فى انتظاره !

وقبل أن يجيب على سؤال واحد من الاسئلة التى نطقوا بها أو التى نطقت بها عيونهم قال لهم :

ـ انتظروا حتى أفك الحمار من العربة وأعلفه ..

كانت العربة التى تحمل الجثة مغطاة بأكوام من الدريس الجاف، وكان يبدو وهو يقودها كأنه يحمل الى المواشى التى تبيت فى الساقية علف المساء ، وحين فك الحمار وضع أمامه أكوام الدريس التى كانت تغطى الجثة ليأكل منها .. ولكن الحمار شم رائحة الدريس قبل أن يأكله ، وامتنع عن الأكل ..

قال الحاج حبيب :

ـ الدريس ملوث بالدم .. ضعوا أمام الحمار علفا آخر !

قال عباس بك :

ـ اغسلوا العربة أولا فهى بلا شك تحمل آثار الدماء ، واحرقوا هذا الدريس كله !

قال الحاج حبيب :

ـ احضروا عشاء لرجب .

ـ لا أجد شهية للطعام !

ـ بعد أن يغير ملابسه الملوثة !

ـ لابد أن تأكل فلا أحد يعرف ماذا يأتى به الغد !

وتردد رجب قليلا فخلع أحد الرجال جلبابه وأعطاه له ، ولكن عباس بك طلب منه أن يغير كل ملابسه .. ففاب قليلا ثم عاد يخب فى جلباب واسع .. وجلس وسط الرجال يأكل الطعام الذى جاءوا به .. يأكل لقمة ويجيب على سؤال ... كان يأكل فى صعوبة :

ـ هل قابلك أحد فى الطريق ؟

ـ بعض الرجال من عزبة العرب !

– هل عرفوك ؟
– لم أتبادل معهم سوى السلام !
– لماذا ؟
– لو لم أرد عليهم السلام لشكوا فى أمرى .
– وهل تظنهم عرفوك ؟
– لا أظن .. !
– هل تأكدت انك لم تترك آثارا فى الرمال ؟
– تركت العربة على الطريق الزراعى ، ودفنت الجثة بعيدا فى قلب التلال !
– هل تعرف المكان الذى دفنتها فيه ؟
– المكان أصبح سرا حتى عليكم ..

قال العمدة فى نفسه : « ابن اللئيمة بدأ يتسيد علينا » .
قال عباس بك :
– أهم شىء يا رجب بعد ما حدث أن تعرف كيف تسكت ؟

سكت رجب .. استمر يمضغ طعامه فى هدوء .. كان يود لو تعرف الدنيا كلها بخبر فعلته عدا الحكومة طبعا ، أضاف عباس بك:
– أى كلام منك سوف يجلب لك المصائب قبلنا ..

رفع رجب رأسه عن الطبق الموجود أمامه والذى كاد يفرغ ، وكأنه سيهم بالكلام ، ولكنه عاد يأكل بنفس الهدوء ، أثارت حركته انتباه الرجال قال له الحاج ابراهيم :
– ماذا كنت تريد أن تقول يا رجب ؟

لم يصدق رجب أن تصبح لحركة رأسه كل هذه الاهمية .. كان يريد أن يقول لعباس بك :
– المصيبة الحقيقية التى كانت تحل بى هى ان هذا البلد لم يعرف قيمة رجب وقد جاء الوقت لتعرفوا قيمته ..

ولكنه وجد متعة غامضة فى أن يواصل الطعام دون أن يرد حتى على الحاج ابراهيم نفسه ...

قال الحاج حبيب :
– اذهبوا الى بيوتكم وناموا قبل أن يطلع الفجر او تجىء الحكومة فقد تكون هذه آخر ليلة تذوقون فيها طعم النوم حتى يزيل الله عنا هذه الغمة ..

- ٢٨ -

حين جاءت اللحظة المثيرة .. اللحظة التى رآها رجب كثيرا فى خياله وفى أحلامه منذ قام بمغامرة حياته كلها لم تكن بمثل الصورة التى كان يراها فى خيالاته ، لم يكن هناك هذا الحشد الهائل من أهالى الزهايرة والذى يفوق كثيرا أى حشد آخر تجمع حول الملعب ! كان هناك العمدة وشيخ الخفراء وعباس بك وشريف .. شريف الذى لم يسعد بمغامرته الكبرى مع انه لم يقم بها الا من أجله ، قال له فى تلك الليلة التى لاينساها وبعد أن انصرف الرجال :
– لماذا فعلت ذلك يا رجب ؟

قالها بما يشبه التأنيب .. تحير رجب .. لم يدر ماذا يقول ؟ مستحيل ألا يفهم شريف لماذا فعل ذلك ؟ اكتفى بهزة رأسه وبابتسامة من يقول :
– انت سيد العارفين ...
– يجب أن تسكت تماما يا رجب ، وألا تعترف بشىء حتى لايلبسوك التهمة .
– أى تهمة .. ؟ أنا لا أبالى بأحد .. ولن تأخذ منى الحكومة حقا ولا باطلا .. ستعرف حقيقة رجب وقت اللزوم ...
– ما الذى تريده الآن يا رجب ؟
– أنت تعرف ..

ودائما كان يعطيه من النقود ما يكفى لمزاجه وظل رجب يرقب عن كثب التحقيق مرة مع العمدة ومرة مع عباس بك والرجال الكبار .. ويرقب المصيبة التى أحدقت بالقرية كلها منذ جاء الهجانة السود على جمالهم ! ظل يرقب ويسمع قصته كلها على كل لسان ! وحين تغرب الشمس ، ويفرض حظر التجول وتنقطع القدم عن السير فى الطرقات وتدب الحياة التى ماتت فى الشوارع

والحوارى والدكاكين تدب فوق أسطح المنازل فى الليالى القمرية وفى الليالى المظلمة ، لم يكن للناس حديث الا عنه .. كيف عرف كل الناس بحكايته ؟ الزهايرة لا تخفى الاسرار ، ولا تبوح بها فى نفس الوقت ، فالناس كلهم يعرفون ولكن الحكومة لا تعرف ، ولم يدعه أحد للتحقيق معه حتى الآن ، ولكن الى متى يتحمل الناس هذا الهول ؟ لقد ضرب العمدة وشيخ الخفراء بالسياط أمام كل الناس ، وسمع عباس بك ما يكره من التهديد والوعيد ويوشك الزرع فى الحقول أن يجف لأن الوقت المباح للعمل لا يسمح برى كل الاراضى فى المواعيد المقررة للرى .. ؟

وقد يجىء عليه الدور فالقرية ملأى بالمخبرين الذين انتشروا فى صورة باعة ، ومتسولين ، وبعض عساكر الهجانة يتقربون من بعض الصفار والكبار ويتكلمون معهم .. كيف يبقى السر المباح غير مباح ؟ وقبل أن يجىء عليه الدور فى الحقيقة جاء فى الخيال .. ودائما كان يرى الضابط المكلف بالقبض عليه ضخما مهيبا تلمع فوق كتفيه النجوم ويحيط به عشرات الجنود ويحيط بهم المئات من الاهالى يزحمون الطرقات وأسطح المنازل .. وينادیه الضابط باسمه ويسائله أمام أهالى الزهايرة ، ولكنه ينكر كل شىء فى هدوء يستفز الضابط والجنود ، ويذهل القرية التى تعرف الحقيقة الكاملة عن دوره ، ويأمر الضابط أحد الجنود بوضع الحديد فى يدى رجب . فيمد يديه فى بساطة من يمدهما للسلام ، ويمضى معهم فى العربة البوكس التى يحرسها الجنود مودعا بنظرات الناس وعبراتهم .. !

دائما كان يرى رجب هذه اللحظة المثيرة بكل ما تستحقه من جلال ، ولكنها حين جاءت لم يكن هناك أحد سوى العمدة وشيخ الخفراء وعباس بك وشريف وكان الضابط نحيلا وضئيلا كأنه أحد تلاميذ البلد وقد ارتدى بدلة أحد الضباط ، وكانت النجوم على كتفيه كابية .. ولم يتبادل معه كلمة واحدة .. ترك الامر كله الى الشاويش ومساعده فاقتادوه ماشيا الى ترعة البوهية .. لم يصدق من حلمه سوى عربة البوكس التى دفع اليها دفعا وقبل أن يلقى بنظرة وداع الى الزهايرة .. لم يبق فى رأسه من الزهايرة

سوى نظرة شريف التى لمحها فى آخر لحظة وكأنها منداة بما يشبه الدموع .. ونظرة العمدة الجامدة الا من شعاع من الغيظ المكتوم الذى يخالطه ما يشبه الندم .. هل هو العمدة الذى وشى به ؟ كان هو الذى يعارض فى اخفاء الجثة وهو المسئول عن تسليمها لهم ولكن هل يخذل العمدة الرجال الكبار بعد أن اتفق معهم هل هو الذى سقط فى قبضة الزهايرة ؟ أم ان الزهايرة هى التى فى يده ؟ يستطيع بكلمة واحدة أن يطبقها فوق رءوسهم جميعا .. ولكنه لن يفعل ، لقد قال كلمته .. قالها بنفسه .. وستعرف الزهايرة من هو رجب الصعيدى ، سيعرف شريف ومحمد الجندى والحاج حبيب .. ونجوى — فى الايام الاخيرة السوداء — كانت خائفة وتسأله بين حين وآخر :

— طبعا لن تعترف بشىء لو سألوك ؟

— أنت لا تعرفين رجب ..

— لا ذنب لأحد فى هذا كله !

— الله وحده يعلم المذنب ياسيدتى ..

— لماذا يتشاجر الناس ويقتلون بعضهم فى بلدكم يا رجب ..

ثم أضافت حين لاحظت صمته :

— لأتفه الاسباب ..

وفكر رجب فى استغراب انها تقول بلدكم .. ؟ وبدا السؤال لرجب غريبا حقيقيا ومفاجئا وصادقا فى نفس الوقت ، وتذكر اللحظة التى حمل فيها القتيل لدفنه .. منعه الخوف ليلتها من التفكير فى أى شىء ، لم يكن يفكر حتى فى الاسباب التى دفعته للزج بنفسه فى هذا الموضوع .. وقتها كان خائفا فقط ، وحين وصل الى المكان الذى سيدفن فيه الجثة .. حين أصبح هو والقتيل وحيدين حدق فى وجهه فى ضوء النجوم .. لحظتها فقط انفجرت فى رأسه هذه الفكرة : « هذا الشاب الصغير الذى مات وبقى الذعر على ملامح وجهه .. لم يكن يعرف قاتليه ولم يكونوا يعرفونه .. فلماذا قتلوه ؟ ولماذا يعرض هو نفسه للهلاك من أجل الزهايرة ؟ وهل كان أبو زيد يفعلها لو كان حيا ؟ كان القتل صناعة أبيه الذى لم يره أبدا .. وها هو يدفن من يقتله غيره .. لماذا

يفعل النـاس ما يفعلونه ؟ كانت تلك أول مرة فى حيـاته يواجهـه فيها هـذا السؤال ؟ وها هى نجوى تسأله نفس السؤال الذى حاول ان ينساه ! فلا يجد اجابة عليه .. ولكنه يجد فى قلبـه مع القلق سرورا لم يعرفه فى حيـاته ، لم يكن يتصور يوما أن تأتى مثل هذه الفتاة الجميلة لتسأله سؤالا حينا وتقدم اليه الطعـام والنقود حينا آخر !

ويشعر انها قريبة منه الى هـذا الحد ! الشاويش الذى يركب بجواره فى العربة هو الذى يلـكزه بمؤخرة البندقيـة ويقول له بصوت غليظ :

ـ فيم تفكر يا ابن الـ ..

ولـكنه لايرد ..

ـ سنعرف كيف نجعلك تتكلم !

ويقول له مساعد الشاويش الذى كان أكبر من الشاويش سنا بلهجة أب مجرب :

ـ يا ابنى .. اذا كنت تعرف شيئا فقله أولا بدلا من أن تقوله بعد أن تذوق البلاء !

كان يعتقد انه عرف أقسى أنواع البلاء التى فى الدنيا دون أن يشعر به أحد ... فكيف لا يحتمل ما احتمله العمـدة وشيخ الخفراء وعباس بك ؟

كيف لا يحتمل والزهايرة كلها تشعر الآن انها معلقة بكلمـة واحدة منه .. مصيرها فى يده .. !

مستحيل أن يكون أحد الـكبار قد وشى به ! فمصلحتهم فى صمته .. وهم يعرفون ذلك .. واذا كانت الظنون قد اتجهت اليه فلا بد أن يكون ذلك بسبب من كلام الصفار فى القرية أمام أحـد المخبرين !

هل هنـاك ما هو أقسى من أن يجوع المريض ؟ لا .. لن يكون مايحدث اقسى مما رآه فى حياته ! ولن يخذل اولئك الذين أنقـذوه من الجوع والمرض والمهانة .. نعم المهانة .. واذا كان لابد للانسان أن يموت فهذه هى اللحظة التى ينبغى أن يموت فيها .. والناس جميعا يشعرون بوجوده وبموته .. !

لقد دخل أبو زيد السجن .. ولـكن الذين يروون القصة لم يقولوا مرة واحدة ما الذى كان يجرى له هناك ..

***

حول فراش الحاج حبيب الذى عاوده المرض من جديد بعد أن دهم الهجانة قرية الزهايرة .. اجتمـع بعض الرجـال الـكبار ليعودوا الرجل العجوز ويتحدثوا فيما حل بهم :

قال الحاج ابراهيم وقد وضح على وجهه الهم :

ـ عباس بك سمح له اليوم بالسفر الى القاهرة مع أولاده أكد انه سيتصل هناك ببعض معارفه ... و ...

قال الشيخ عرفه بغيظ :

ـ عباس بك وابنه هما أصـل المصائب كلها .. ووجوده فى القضية هو الذى يدفع رجال الادارة الى الاستماتة فى البحث عن الجثة لتدبير مصيبة له ..

قال العمدة وكأنه يحملهم المسئولية :

ـ عدم ظهور الجثة مع تأكدهم من وجودها هو الذى يغيـظ رجال المباحث ويثير جنونهم .

قال الحاج ابراهيم :

ـ رجب هو الذى يثير جنون الضـابط والمـأمور والعساكر بصمته .. أصبحت المسألة ثأرا شخصيا بينه وبين ضابط المباحث

قال الشيخ عرفه :

ـ الى متى يحتمل هذا البغل ؟

أكد الحاج حبيب بصوته الواهن :

ـ لن يعترف أبدا .. أنا أعرف هذا الولد منذ ..

ـ قولوا الى متى نحتمل نحن ؟

عاد الحاج ابراهيم يوضح الامور :

ـ مهما يكن ما نعانيه الآن فله نهاية .. ونحتمله معا ، وقـد تفيدنا جهود عباس بك عند معارفه لانهاء المصيبة ، وتفيـدنا نقوده لاسكات أقارب القتيل فى السـنبلاوين .. اما اذا ظهرت الجثة فسوف تنقسم الزهايرة وتحاول كل عائلة ابعاد التهمة عن نفسها أو الصاقها بالآخرين ..

أمام دكان الخلفاوى الذى استرد زبائنه ومكانته الجغرافية والاجتماعية بعد غلق النادى كان أهالى الزهايرة يتحدثون عن آخر مغامرة قام بها رجب الصعيدى مع رجال المباحث ، وكان عطية ابن جمالات هو الذى يروى الواقعة التى رأى جزءا منها وسمع الباقى من رجل من عزبة العرب قضى ليلة فى السجن مع رجب الصعيدى فى قضية نفقة ، قال عطية الذى لم يفقد بعد الشعور بالاهمية الذى اكتسبه من الكرة والذى أصبح فى الايام الاخيرة مدعاة للسخرية واللوم والتندر عليه وعلى فريق الأسد المرعب الذى جر المصائب على القرية كلها :

ـ كانوا قد ضربوه حتى عجز عن الكلام .. وأنتم تعرفون رجب كان هنا قد عجز عن كل شىء عدا الكلام ..

كان أول كلمة قالها للضابط بعد أن أفاق ، وبدأ يشعر بالآلام الفظيعة :

ـ سأدلكم على مكان الجثة لكن حتى أقدر على الوصول معكم الى هناك لى مطلب صغير ..

وابتسم الضابط وقال :

ـ بدأت تعقل يا رجب .. ما هو طلبك ؟

ـ قطعة صغيرة من الافيون .. !

وأعطاه الضابط ما طلب ..

جاء بهم الى الهدار ..

وهناك رأيته بعينى هاتين .. لم أعرفه .. لم يبق منه شىء على حاله .. لا ثيابه ولا جلده .. أشار للضابط أمام الهدار وقال :

ـ ألقيت بالجثة هنا ...

ـ تهزأ بنا يا ابن الـ ... وهل ستبقى الجثة فى هذا المكان ؟

ـ أثقلتها بالحجارة .. !

ومع ان الضابط لم يبد عليه انه يصدق رجب فقد أمر رجاله بالغوص أمام الهدار ، وكاد بعضهم يغرق .. ! ولكنهم جميعا خرجوا بدون أن يعثروا على شىء ، وفى حالة أسوأ من حالة رجب

قال له الضابط والغيظ يتآكله :

ـ سوف أفعل بك ما فعلته بالقتيل .. سوف أضعك فى جوال

وأثقلك بالحجارة وأرمى بك أمام الهدار لتبحث عنه حيث وضعته.

ـ يبقى كتر خيرك يابيه .. تبقى عملت لى خدمة لا أنساها لك.

وانهال عليه الضابط ضربا كالمجنون ..

***

قال صبرى لأحمد وهما عائدان من الحقل قبل الغروب قبل أن يبدأ حظر التجول .. وكانا يمران أمام الهدار :

ـ من هذا الهدار بدأت القصة كلها .. وأمامه كادت تنتهى !

ـ سوف يموت رجب من العذاب .. وقبل أن تنجح مساعى عباس بك فى القاهرة لانقاذ الموقف ..

ـ ليته يموت الآن .. على الاقل سيكون راضيا عن موته .. أما لو عاش وعاد الى الزهايرة ليرى كيف ستتنكر له فسوف يكون ذلك أشنع من الموت !

ـ وهل تنسى الزهايرة ما فعله من أجلها ؟

ـ ستبقى طول عمرك أهبل ؟ وهل كان ما فعله فى حياته أقل مما يفعله الآن بموته لو انه مات ؟

ـ التضحية بالحياة لا تعادلها تضحية ..

ـ أليس العمل هو جوهر الحياة .. طوال عمره يضحى بعمله فماذا فعلوا له ؟

ـ الحياة أكبر وأعظم من كل شىء ..

ـ قيمة الحياة هى قيمة ما نفعله بها .. ما نفهمه عنها وبها ..

ـ أنت أحمق .. تلوك دائما مجموعة أفكار محفوظة ..

ـ أنت لا تفهم حتى ما يفهمه ضابط المباحث الذى فهم فى النهاية سر صمود رجب فراح يجرب معه وسائل غير العنف ..

ـ ماذا جرب معه ؟ تعرف دائما عن رجب ما لا أعرف ؟ لماذا لم تخبرنى بذلك ؟

ـ لأنك لا تهتم برجب الا كما تهتم بعصفور أو بلوحة أو حتى بشريف ..

ثم تابع :

ـ عرف الضابط ان عباس بك وشريف طلبا زيارة رجب قبل سفرهما .. قال له مرة بعد أن أعطاه قطعة من الافيون :

ـ خدعوك يارجب .. استغفلوك ووشوا بك لم يحتملوا ما أصاب زرعهم .. وما يصيبهم .. ودلونا على مكان الجثة .. واحضروا شهودا بأنك أنت القاتل .. وغدا سوف تسألك النيابة وستدفع وحدك الثمن .. سوف تشنق ..

صرخ فيه رجب بلا وعى :

ـ أين وجدتموها ؟

قال الضابط ببرود وهو يواصل ارخاء الحبل :

ـ غدا سوف تجيبك النيابة على سؤالك .

صرخ الاحمق وقد أصابه ما يشبه الجنون :

ـ مستحيل .. لا أحد غيرى يعرف مكانها !

ـ ستعرف غدا انه لم يكن هناك مغفل غيرك ..

ـ لا أصدق حتى أرى الجثة ..

ـ ستقودنى الآن الى مكان الجثة والا قدتك الى القبر ..

ـ لا أعرف مكانها !

وجن جنون الضابط وانهال عليه ضربا حتى انقطعت أنفاسه.. ولا أظن انه ستقوم له قائمة بعد هذه المرة .. لقد تدخل المأمور وقال للضابط :

ـ هل جننت ؟ تعرض مستقبلك للضياع من أجل هذا الجربوع ؟

ـ متى عرفت هذا كله ؟ وكيف ؟ أصبحت تخفى عنى الكثير من أسرارك ؟ لم تعد تثق بى ..

ـ لا .. والا لما أخبرتك بها الآن .. كل ما فى الامر اننى أشك فى صدق اهتمامك بما يهمنى !

ـ لا .. انت لا تريد أن تفهمنى أبدا .. لا تفهم الا ما فى رأسك فقط ..

***

« لايمكن أن يكون السجن الذى دخله أبو زيد كهذا السجن.. ولا شك ان حراسه كانوا يعرفون ان « أبو زيد » هو سجينهم ولعلهم كانوا يخافونه حتى وهو راسف فى القيود ، مجرد من سيفه .. أما هو فان أحدا لا يعرف عنه شيئا .. حتى الذين عرفوه فقد

خذلوه .. لقد تحمل كل شىء من أجل أن يصدقوا .. أن يعرفوا ماذا يمكن أن يفعل وان يحتمل ! هل خذلوه حقا ؟ لا .. والا ما طلب منه الضابط أن يدله على مكان الجثة ، الضابط هو الذى كان يخدعه اذن ؟ وهو الذى لم يحتمل صبر رجب واحتماله .. وراح يضربه فى جنون .. الضابط فقد عقله وهو أيضا يوشك أن يفقد ذاكرته ..

قال له الضابط :

ـ سوف انفيك الى الطور لتقضى بقية حياتك هناك مع القتلة والمجرمين ..

لا .. لايصدق انه سوف يفعل ذلك ، لقد سافر عباس بك ليسعى لانقاذه وانقاذ الزهايرة مما هى فيه .. ولن يطول انتظاره .. سمع فى طفولته ان أباه نفى مرة الى الطور وقد يلتقى هناك بمن يعرفون أباه ، ويحدثونه عنه .. مستحيل أن يذهب الى الطور .. لابد أن يعود الى الزهايرة التى تعرف الآن من هو رجب .. وتنتظره كما تنتظر الابطال .. لايمكن أن يكون الابطال بهذا الضعف .. كيف يعود وهو لا يقدر على تحريك عضو من أعضائه ، حياته كلها هى التى تتحرك أمام عينيه فى سرعة عجيبة .. الوجوه التى عرفها والبلاد والطرق والناس والمساقى والمواسير وهو يتحرك معها من الطفولة الى الشباب الى المرض الى الموت .. لا .. لن يموت لقد قطع كل هذه الايام والبلاد والآلام من أجل هذه اللحظة التى يصبح فيها انسانا له شأن ، ولكنها حين تجىء يكون هو قد أصبح عاجزا مهدودا غير قادر على الحركة .. يهده الألم ، ويتنفس بصعوبة ، ولا أحد يسمع صوته أو ينظر فى وجهه سوى العساكر وضيوف السجن .. مستحيل أن يكون أبو زيد قد دخل مثل هذا السجن ، وتعرض لمثل هذا العذاب ! لو خرج هو يوما الى الدنيا من جديد .. لو التقى بذلك الرجل الذى يروى قصة أبو زيد لسأله عن هذا الجزء الناقص من القصة كان يكذب هذا الراوى.. كل الرواة كانوا يكذبون ! كانوا يخفون أهم أجزاء القصة ! كيف كان يعيش أبو زيد ؟ وما الذى كان يفعله حين يموض ؟ وماذا جرى له فى سجون تونس الخضراء ؟ كل الناس كذبوا عليه .. الرواة

وغيرهم .. لماذا لم يعد شريف ليخرجه كما وعد ؟ كان يعتقد انه نوع آخر من الناس ! لا يصدق انه لن يعود .. لم يصدق فى مواعيده سوى الجوع والألم والمهانة ، قطعة صغيرة من الافيون .. من يأتيه بها ؟ الافيون لايكذب .. يجيء ومعه الراحة ، كان شريف يعطيه من النقود ما يكفى لشرائه دائما .. لو كان النـاس يكذبون على أبو زيد لمـا عاش فارسا ومات فارسا .. لابد انه كان هناك من يصدق معه .. ولم يذكر الرواة أنه كان يتعاطى الافيون .. هـل كذبوا فى هذه أيضا .. ؟ وجه الحاج حبيب يتراءى له واهنا طيبا ووجه نجوى وشريف ...

ـ لن تعترف مهما فعلوا معك .. !

« هل سيراها من جديد ؟ الألم وحده هو الذى يدخل من باب السجن ، يخترق عظامه وجلده ، ويسجن معه .. يسجن فيه ..!

***

ذات يوم وردت الى الزهايرة اشارة تليفونية من مسـتشفى المركز تفيد ان رجب الصـعيدى قد مات وعلى من يهمهم الامر الحضور لتسلم جثته .. نقل الخفير الاشارة الى العمدة ، كان هو الذى يهمه الامر .. وانتشر الخبر فى الزهايرة .. وخيم الذهول على القرية ، لم يدر أحد ماذا يفعل ؟ واجتمع الرجال الـكبار فى منزل العمدة هذه المرة ، الذى كان قد ذهب الى المركز فور تلقيه الاشارة وعاد ليقول لمن كانوا فى انتظاره من الرجال بلهجة من فهم المشكلة من أساسها ..

ـ مطلوب منا أن نسكت على موت رجب ليسكتوا عن موضوع الجثة المختفية !

ـ ومن يضمن لنا انهم سيسكتون ؟

ـ لا أحد يضمن شيئا .. وليس أمامنا سوى اعطائهم الفرصة فهم فى موقف الأقوى دائما ..

ـ وماذا كتب المستشفى فى سبب الوفاة ؟

ـ كتب ما يخلى مسئوليتهم طبعا !

ـ رحم الله رجب ...

ـ سوف تنقل جثته عربة الاسعاف الى المقابر فى الليل وبدون جنازة أو ضجة .. !

فى اليوم التالى لدفن رجب رحل الهجانة عن القرية وخرجت القرية كلها لزيارة مقبرته ، كان عطية بن جمالات هو الذى سمح له بأن يخرج من الليـل ليهيىء المقبرة للدفن .. وهو الذى قاد الناس اليها .. فى الصباح .. خرجت القرية كلها فى موكب كان يتمنى رجب أن يراه فى حيـاته .. وعلى جنبات الموكب كانت ترتفع سحابات الغبار ويتناثر رذاذ من الـكلمات التى تقولهـا الزهايرة بلهفة كلما تجمعت كعادتها خارج اطار العمل :

ـ طلب رجب أن يدفن فى تلال ابن سلام بجوار القتيـل الذى دفنه هناك .

ـ لا أحد غيره يعرف المـكان .

ـ وصفه لعطية بن جمالات الذى تسلل لزيارته فى المستشفى..

ـ الله يرحمه .. كيف تصور أن يحدث هذا .. عاش مجنونا ومات كذلك ..

ـ أخيرا استراح رجب ..

ـ نريح أنفسنا بهذه الـكلمات ..

ـ كنت تتمنى له الموت حتى لا يفجع فى حلمه الاخير ..

ـ تحققت أمنيتى لا أمنيته .. ! لم تتحقق له أمنية واحدة.!

ـ وحزن كل هؤلاء الناس عليه .. الا معنى له عندك ..

ـ له معنى .. اننـا مستعدون لأن نقوم بالواجب حين يكون الواجب الاول هو الواجب الاخير .. !

***

صرخت امراة مجهولة وسط الجمع ، وتلاشت صرختها قبل أن يعرف أحد من هى ؟ ولا ماذا قالت ؟

« كنت أعتقد انه لم يعد هناك ما يثيرنى .. ما يثير دموعى .. رأيت الـكثير .. وعرفت الـكثير .. وعانيت الـكثير .. ولـكن حين يشعر الناس بأن رجلا وحيدا وغريبا وفقيرا أعطاهم كل شىء حتى حيـاته ثم مضى دون أن يأخذ منهم شيئا يذكر فانهم لايغفرون له مدى حياتهم انه فعل ذلك بهم .. ! »

حين جرح رجب فى المسجد اول مرة جرى فيهـا حديث عن النادى قلنا :

ماتت فكرة النادى الى الابد واستراح الناس .

ولكن الفكرة ما لبثت أن عادت ، وعادت معها المصائب للبلد، والآن بعد أن مات رجب هل يمكن أن نطمئن حقيقة الى ان الفكرة قد ماتت حقا ؟

ـ لا تصدقوا .. ولا تصدقوا ان رجب نفسه قد مات فان احدا منا لم ير جثته !

رآها عطية بن جمالات ودفنه مع رجال الاسعاف والبوليس ..

ـ مادا فى الزهايرة عطية بن جمالات وامثاله فكيف تقولون ان رجب قد مات ؟

***

ـ هل صحيح ان الاستاذ شريف لن يعود الى الزهايرة ؟

ـ ولماذا يعود ؟ انتهت الاجازة ، وانتهى فريق الأسد المرعب وبعد أيام يسافر الى القاهرة بقية أعضاء الفريق ؟ وهناك قد يلتقون ويلعبون لعبة أخرى لا تجر عليهم المصائب كما حدث فى الزهايرة ؟

ـ كنت عضوا فى الفريق .. قال لى انه سيأخذنى معه ..

ـ صدقت يا ابن جمالات هذه الحكاية ؟ لا تخف لقد ترك لك رجب الصعيدى جميع وظائفه خالية فى القرية .. نحن نعرف انك لن تفلح بعد اليوم فى شغل الفيط ؟

ـ والنادى ؟ والفوانيس التى اشتروها ؟ وفلوس المباراة الاخيرة ؟

ومع انه لم يكن هناك شكوك حول قيمة هذه الفلوس ، فقدكانت كلها بتذاكر فان أحدا لم يكلف نفسه عناء السؤال عنها أو عن مصيرها ، ولم تثر بشأنها أية اتهامات ، ولم يكن ذلك أغرب ما وقع فى ذلك الصيف من عام ١٩٥٤ فى قرية الزهايرة ..

« كان السؤال الذى بدا غريبا لصبرى هو سؤال أحمد له وهما واقفان فى انتظار « الاوتوبيس » الذى يمر بالقرية قبيل سفرهما الى القاهرة فى بداية العام الدراسى ، وعيناه تحتضنان « الزهايرة » وحقولها معا :

ـ متى تعتقد انه سيأتى ذلك اليوم الذى تتجمع فيه الزهايرة

خارج حقولها ثم لا تحدث الكارثة ؟

فوجىء صبرى بالسؤال الذى بدا وكأنه بلا مقدمات ، ثم قال وعيناه تمسحان الطريق فى انتظار العربة :

ـ لا ادرى ... ولكنى كنت اعتقد دائما ان مثل هذا التجمع ضرورى لكى تحدث المعجزة !

ـ ومتى تحدث هذه المعجزة ؟ قالها أحمد بنبرة سخرية ..

ـ لست أعرف ...

ثم أردف وكأنه ادرك متأخرا نبرة السخرية مقلدا نبرة الجد :

ـ حين تفتش فى محاضر البوليس فلا تجد احداثا بشعة تقيد ضد مجهول أو لا تقيد أصلا !

قال أحمد : ستبقى طول عمرك أحمق لا ترى سوى الاسباب الظاهرة . قالها بلهجة بين الجد والهزل .

انفجر صبرى : يا عزيزى يكفينى ان أرى الظاهر أما الباطن فسوف أتركه لك تغرق فيه حتى أستريح من وجهك . ولكنه لم يسترح من وجهه فقد جاء الاوتوبيس وركبا فيه وجها لوجه ! »

***

فى اليوم التالى وردت اشارة تليفونية من المركز تطلب الاسم الكامل لرجب لكتابته فى دفاتر الوفيات فلم يكن قد خرج تصريح رسمى بالدفن ولم تعرف القرية اسمه بالكامل ...

قال الحاج ابراهيم :

ـ نسأل الحاج حبيب ، هو أول من التقطه ..

وحين ذهبوا ليزوروا الرجل العجوز ويسألوه وجدوه قد مات فى صباح هذا اليوم ، وقال الحاج ابراهيم :

ـ اكتبوا اسمه هكذا : رجب حبيب الصعيدى .. لن يكون هناك من يسأل عن حقيقته أو من يعرفها .. !

تمت

أضف الى مكتبتك أجمل الروايات

« روايات الهلال »

الدار الكبيرة	محمد ديب
الحريق	محمد ديب
النول	محمد ديب
مأساة الملك لير	وليم شكسبير
نحن والولايات المتحدة	بيتر بروك
البنسات الثلاثة ج ١ ، ج ٢	برتولد بريخت
جاتسبى العظيم	سكوت فتزجرالد
ابنة الضابط	بوشكين
فيراتا	ستيفان زفايج
امرأة من روما ج ١ ، ج ٢	البرتو مورافيا
ألوان من القصص	محمد التابعى
الحسين ثائرا	عبد الرحمن الشرقاوى
الحسين شهيدا	عبد الرحمن الشرقاوى
مياه الربيع	تورجنيف
الحائرون	فتحى رضوان
الجبان والحب	موسى صبرى
بردیس ج ١ ، ج ٢	ابراهيم الوردانى

حكايات من الشرق والغرب	محمد التابعى
الشـــــباك	صالح جودت
السائرون نياما	سـعد مكاوى
الأم شجاعة وأولادها	برتولد بريخت
شىء نسيه البشر	عبد الرحيم عجاج
مدرســـــة المغفلين	توفيق الحكيم
قاهر الزمن	نهاد شريف
اشراق من الجنوب	ممدوح سليم
البحر	صالح مرسى
أربعة رجال وفتـــاة	صوفى عبد الله
المنار	فرجينيا وولف
جريمة فى القطـار الازرق	أجاثا كريستى
الغريب	ألبير كامو
عودى الى البيت	صالح جودت
الفيلسوف أم الـكلب ج ١ ، ج ٢	ماشادو دواسيس
أرواح ظامئة	ابراهيم المصرى
العاصـــفة	غبريال وهبه
البحث عن النسيـــان	سـعد حامد
صـديق الشـدة وقصص أخرى	سومرست موم
عينـــاك خضراوان	هـدى جاد
اكسـير الحيـــاة	محمد عزيز الحبابى
ســـوق التلات	حسن عبد المنعم
الفيران والرجال	عزمى لبيب
أرنى الله	توفيق الحكيم
العجوز والبحر	أرنست هيمنجواى

المصـــــيدة	زهير الشـايب
البيـات الشـــــتوى	يوسف القعيـد
زوجة رجـــــل آخر	امين يوسف غراب
حب تحت الحراســـة	اسماعيل ولى الدين

الثمن : ١٢ قرشا

اطلبها من دار الهـلال ومن المكتبات الشهيرة وبالبـريد ، أضف الى ثمنها خمسة قروش عن كل خمس نسخ ، او اقل ، وارسلها الى دار الهلال ـ شارع محمد عز العرب بالقاهرة

هذه الرواية

في كل مرة تجمعت فيها قرية « الزهايرة » خارج اطار العمل في الحقول .. كانت تحدث الكارثة .. وهكذا امتزجت افراح الناس بالاعراس والموالد والاعياد بخوف غريزى منها .. واصبح لا يماثل شوقهم لها سوى خوفهم منها ، وفى عام ١٩٥٤ ، والثورة المصرية فى عامها الثانى جرؤت مجموعة من شباب القرية فى أن تتحدى هذا الخوف الغريزى وان توقظ اشواق القرية الى التجمع حول كرة صغيرة ساحرة ابتلعت فى جوفها الفروق بين الصغار والكبار بين الاغنياء والفقراء ، بين القرية والقرى المجاورة ، فهل نجحوا فى أن يستأصلوا هذا الخوف الغريزى، ويحققوا المعجزة؟!

أن هذه الرواية لا تجيب على هذا السؤال فحسب ، ولكنها تروى الفصل الاول من حياة نماذج من هذا الجيل الذى كان قد تجاوز العشرين بقليل حين كانت الثورة فى عامها الثانى .. !

هذا الجيل الذى لم يتحمل مسئولية الثورة ، ولكنها تركت فى حياته آثارا تستحق أن تروى!

ابو المعاطى أبو النجا

الثمن ١٢ قرشا